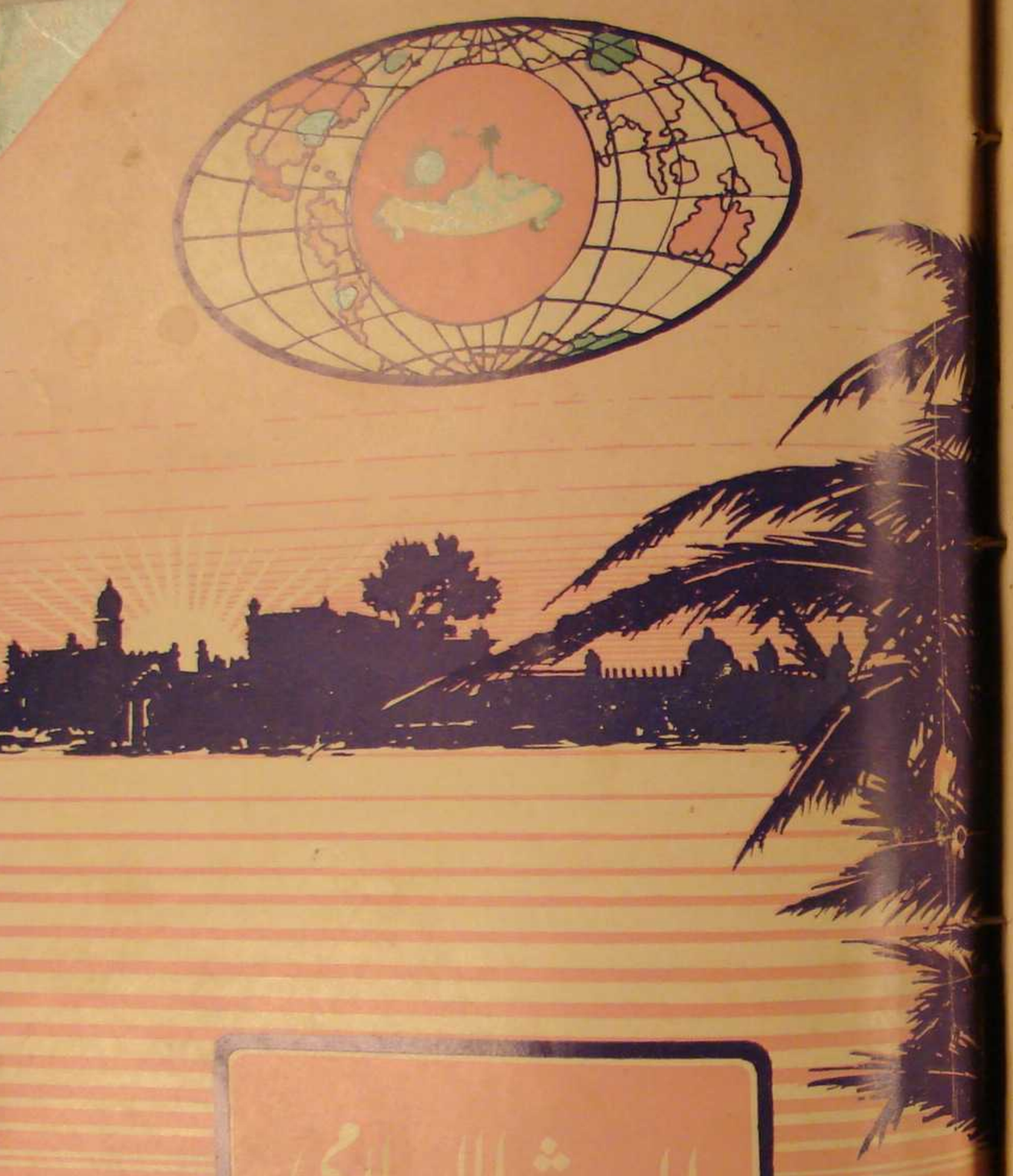

Phones . 49747 - 42948

Regd. No. Lw/NP 59

ALBAAS - EL - ISLAMI

Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (INDIA)

صدر حديثاً :

الامام السرهنـــــــدى ، حياته وأعماله

هذا الكتاب يحكى قصة الامبراطورية المغولية العظيمة فى الهند فى القرن الحادى عشر حينما بدأت وجهتها تتحول من الارتباط بالدين الاسلامى ، و التمسك بأهداب النبوة المحمدية (على صاحبها ألف ألف تحية وسلام) وتمثيل الحضارة الاسلامية ، إلى الفلسفة البرهمية ، والحضارة الهندوسية ، ونظرية « وحدة الديانات » بتأثير الأغراض الشخصية و الميول الفردية و التأثيرات الخارجية ، و المصالح السياسية المزعومة .

كيف قام الامام أحمد بن عبد الاحد السرهندى فى وجه هذا التيار الجارف ، وتغلب على الوضع الشاذ ، وتهيأ لعملية « صناعة الرجال » وصنع العبقريات فى زاوية بعيدة عن صخب الحياة .

لكى تطلع على هذه القصة بتفصيل ، و ترى كيف أن العزم و الايمان والاخلاص والربانية يغير وجهة أمة بأسرها و وجه إمبراطورية بكاملها ، اقرأ هذا الكتاب القيم ، الذى هو سلسلة من رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام .

بقـــــلم

سماحة الشيخ العلامة السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

النـــــاشر

دار القلم ، ص . ب ٢٠١٤٦ - الكويت

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيـد الأعظمى

أنشأها فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمد الحسني رحمه الله في عام ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

المجلد السابع والعشرون

العدد التاسع

جمادى الثانية ١٤٠٣هـ

مارس وأبريل ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقياس حضارتنا

إن مقياس الحضارة فى المجتمع الاسلامى ، غير مقياسها فى المجتمع الجاهلى بجميع صوره و ألوانه ، و هذه هى نقطة الفصل ، ونقطة الالتباس أيضاً ، الأصل — فى المجتمع الاسلامى — هو العبودية لله ، و الخضوع أمام شريعته و الاتصال به اتصال القلب و الروح و التفكير و الوجدان ، و الجهاد فى سبيله بأعز ما يملكه الانسان ، أما هذه الوسائل و الأدوات فهو لا يأخذ منها إلا بقدر ما يكفى لتحقيق مهمته فى هذه الحياة ، و إعلاء كلمة الله فى الأرض ، ولا يأخذ منها إلا فى حدود معلومة واضحة أذن بها الله.

(الأستاذ المرحوم) محمد الحسنى

(الاسلام الممتحن ص ١١٠)

البعث الإسلامي ندوة العلماء ص.ب ٩٣ لكهنؤ (الهند)

ALBAAS-El-ISLAMI Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (India)

فى هذا العدد

مزيداً من التركيز على روح الاخلاص والتضحية

يا دعاة الاسلام — سعيد الأعظمى — ٣

التوجيـــــــه الاسلامى

العالم الاسلامى فى القرن العاشر الهجرى — سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الندوى — ١٠

الاشتراكية أو الاسلام — الأستاذ خورشيد أحمد — ٢٨

المرأة فى التشريع الاسلامى — دكتور توفيق محمد شاهين — ٤٠

الدعوة الاسلاميـــــــة

الأدب النبوى — سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الندوى — ٥١

من بحوث الندوة العالمية الأولى للأدب الاسلامى

الأدب الاسلامى

فى تراثنا التاريخى و الجغرافى — الأستاذ الدكتور فتحى عثمان — ٥٧

الفقـــــــــــه الاسلامى

الفوائد المصرفية وربويتها وحكم الانتفاع بها — فضيلة الشيخ محمد برهان الدين السنبهلى — ٧١

دراسات و أبحـــــــاث

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى — الأستاذ سلمان الحسينى الندوى — ٨٥

المستشرقون و القرآن الكريم — محمد صدر الحسن الندوى — ٩٢

العـــالم الاسلامى — صور و أوضاع

تقدم على آبار الماء وآبار البترول — واضح رشيـــد الندوى — ٩٥

أخبار اجتماعية و ثقافية

ندوة علمية واحتفال دينى فى بنغله ديش — قلم التحرير — ٩٩

سعادة الأستاذ عبد الله العقيل فى منصبه الجديد — » » — ١٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

★ الافتتاحية

مزيداً من التركيز على روح الاخلاص والتضحية يا دعاة الاسلام

مما يشجو القلب و يملؤه أسى أن يكون فى صف دعاتنا ممن لهم مكانة مرموقة ، و بين أقطاب الفكر السليم ، أناس لا يرون بأساً فيما إذا واجههم ظروف مضادة ، أو دعتهم مصلحة شخصية أن يجدوا فى أنفسهم تجاوباً للسير على غير هدى ، ويتمخض ذلك فى نهاية المطاف بانحراف عن الجادة ، وتظاهر بالاستياء الشديد ضد بعض المجريات من الأمور التى اعترضت لهم خلال رحلتهم العلمية والعملية التى تمتد فى طريق شاق طويل يتطلب تضحيات جسيمة ، ويتعرض بصاحبه لكل نوع من الخطر على النفس والمال ، ولكل إهانة جسدية وروحية ، إذ أننا لا نعرف ولا مثالا واحداً على مدار التاريخ يكون فيه طريق الدعوة مفروشاً بالأزهار و الأوراد ، إنما هو طريق البلاء و الفتن و الصبر على الشدائد و المحن « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، و لقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، و ليعلمن الكاذبين »

و قد تدعو بعض رجال الفكر و الدعوة إلى الانحراف عن الطريق المألوف إلى درب جديد ، تقتهم الزائدة بعلو فكرهم وبعد نظرهم ، واتساع آفاق المعرفة ونطاق العقل لديهم ، ورغم أن مكانتهم الفكرية الممتازة تتكفل وقايتهم من كل ما يمس قيمتهم الغالية و يجرح منصبهم العظيم الذى يتولونه و تتفادى من تسرب أى شك نحو ما يتمتعون به من إخلاص و نصح للدين ، رغم

مزيداً من التركيز على روح الاخلاص والتضحية

كل ذلك فانهم لا يبالون بما إذا تناولوا بعض ظواهر المجتمع الاسلامى و أوضاع المسلمين بالنقد اللاذع و بتأكيد أن ذلك ليس إسلاماً ، و أن الاسلام برئى من مثله ، و هنالك يفيضون فى تفسير الاسلام بحيث لا يتركون صغيرة و لا كبيرة إلا و ينتقدونها من خلال التفسير العام لجوانب الدين المتعددة كأنهم يتعمدون فى تفسيراتهم نقاطاً خاصة لا يكون لها كبير صلة بصميم المنهج الدينى للحياة و شرح مفاهيم الجوانب الغامضة على الذين يراودهم شكوك فى بعض منها أو يحتارون فى تطبيق تعاليم الدين عليها فى ضوء التفسيرات المادية للنظرات الحديثة نحو الحياة والانسان .

و إذا كان هناك عدد من الدعاة الاسلاميين وقادة الفكر منهم انتهزوا فرصة الصحوة الفكرية فى العالم الحديث بوجه خاص لعرض الفكرة الاسلامية النقية بشتى كثير من الشرح والشمول ، على المجتمعات المادية فى أسلوب رصين ومقنع مؤثر ، فذاك عمل له من الأهمية مالا يستهان به ، ولقد كان ذلك العمل مشكوراً من جميع الجهات المعنية بالدعوة الاسلامية ، و كان واجباً كبيراً فى الوقت الحاضر ، لا سيما و كان الناس فى الأقطار الراقية المتقدمة و العالم المثقف المتحضر اجتازوا بتجارب كثيرة منوعة فى مجال التنمية الفكرية بجانب التنمية الصناعية و الاقتصادية ، ولكنهم لم يظفروا بضالتهم إلا فى منهج الحياة الذى اطلعو عليه من خلال ذلك الشرح المقنع الذى قام به قادتنا و دعاتنا فى مختلف الجهات و القطاعات غرباً و شرقاً .

و بفضل هذه الدراسة الدعرية الخالصة فوجئى العالم باقبال متزايد نحو دراسة الاسلام بجد و عمق وحتى فى الأوساط المادية الخالصة ، و تطلعت أنظار أهلها إلى التخلص من الأدواء غير طبعية أصابتهم بفعل العوامل النفسية فى الحضارات المادية ، التى حولت الحياة إلى كتلة من جماد يتناولها الميكانيكى بالتشكيلات التى تتناسب أهواءه مع مراعاة طلبات السوق و مقدار الاستهلاك ، شأن البضائع و المنتجات التى تملأ

المتاجر و المراكز الصناعية الكبرى فى الأسواق الدولية ، فلما كان هناك نمط للحياة غير الأنماط التى جربوها ، و فيه مراعاة لجميع جوانب الحياة و فيه استجابة لجميع طلبات النفس والروح ، ولجميع الاحتياجات الانسانية ، فكيف لا تقبل عليه النفوس و لا ترغب فى إجراء هذه التجربة الفريدة من نوعها .

فكان طبيعياً أن ينال ما قام به دعاتنا المخلصون من عمل مشكور و مجهودات مخلصة فى هذا المجال اهتمام العالمين فى الحضارات والأوساط المادية البحتة ، ولكن الأمر لم يسر على مساره الطبيعى بل كان طبيعياً كذلك أن يتنبه إليه عقلاء العالم ويقيموا لهذا الاتجاه «الخطير» وزناً كبيراً ، ولا يتأخروا للحظة واحدة فى إيقاف هذا الخطر الداهم ، و المد المتفاقم ، فلم يدخروا وسعاً فى إعداد كل ما أمكنهم من وسائل الصد و إغلاق منافذ النور فى جانب ، و شل أعضاء الدعوة و تجميد عملهم فى جانب آخر ، دون أن يحفلوا بما يكلفهم ذلك من بذل النفوس والنفائس و طاقات كبيرة من الامكانيات والقدرات التى تقف فى وجوه العاملين ، سواء تم ذلك بتوجيه إنذارات تلقى فى صدورهم الرعب و تهددهم بنتائج خطيرة ، أو بصرف أفكارهم من الوجهة الصحيحة إلى جهة غير مألوفة وطريق شائك ، أو بشراء نشاطهم وحماسهم فى خدمة الفكر الاسلامى بمقابل جذاب من الاغراءات المادية التى لا تبدو أنها مادية أو أمر يعارض روح الدعوة و الكفاح الدينى .

إننى لا أنوى فى هذه المناسبة أن أشير إلى واقع خاص أو أريد إحباط تلك المجهودات العظيمة والأعمال المهمة التى تنجز فى مجال الدعوة والفكر الاسلامى اليوم ، و لا أريد أن أوفر موشرات لما قد يكون حدث هناك من مثل هذا الواقع المؤلم فى أوساط دعاتنا و كتابنا و حملة لواء الفكر الدينى فى عالمنا الذى نعيش فيه ، و إنما أريد فقط توجيه الاهتمام إلى مثل هذه الجوانب المهمة التى تسترعى

مزيداً من التركيز على روح الاخلاص والتضحية

انتباه أعداء الاسلام وهم يتخذون فى التركيز عليها كل نوع من الامكانيات ، ولا يعرفون فى تنفيذ مخططاتهم أى معنى لليأس أو القعود ، و التعب و الضعف و الكلال والملال ، و لهذا الجهد الدائب والتضحية بكل غال و رخيص فى تنفيذ إرادتهم تأثير أى تأثير ، و لقد أدرك هذا السر أعداؤنا فأخذوه منا وتمسكوا به ، وجردونا من هذه الميزة الكبرى التى كان سجلها تاريخ المسلمين بحروف ذهبية ، وذلك أيضاً من ضمن إعداداتهم ونشاطاتهم التى يبذلونها فى تجفيف منابع القوة والحركة وسد منافذ النور .

و لاغرو فان ما يكب عليه أعداؤنا من إحباط كل ما يبذل اليوم فى سبيل إعادة الثقة بالاسلام و منهجه من نشاطات موسعة على المستويات العلمية و الفكرية و الاعلامية يفوق أضعافا كثيرة بازاء كل ذلك ، و عندهم من الامكانيات المادية الهائلة و الأرصدة الواسعة لكل نوع من الذخائر و الطاقات مالانكاد نحلم به فى أقطارنا و دولنا ومراكز توجيهاتنا و تربياتنا ، كما أنهم يتمتعون بالاخلاص العميق و النفانى المنعدم النظير فى سبيل المبدأ الذى يتمسكون به ، و فيما يعيشون له ومن أجله ، فهل توثر عليهم إغراءات أو تعوق سبيلهم قناطير مقنطرة من المال ، و هل تزعزع عقيدتهم زخارف و مناصب ؟ !

أما المسلم فلامانع لديه إلا ـ من عصمه الله ـ عن الانصياع التام لمن يريد أن يخدعه بالكلام المعسول أو يقطع عليه الطريق بحكمة بالغة وبأسلوب ماكر، دون أن يتفطن لما يختفى وراء كل ذلك من هدم و تدمير و نهب و سلب ، و لقد سرى أو يكاد يسرى هذا الاهمال فى أوساط العاملين للاسلام ، الذين جربوا المندسين إلى صفوفهم باسم العمل و الدعوة و الجهاد لاعلاء كلمة الله و لم يبالوا بتحمل أى مشقة فى تبرير موقفهم ، و إثبات إخلاصهم ، ولكن هذه العملة الزائفة لا توجد لدى المحاربين ضد الاسلام و المتآمرين عليه ، لأن هولاء المحاربين إذا كانوا بعيدين عن العصبية المنكرة و كانوا مخلصين لما هم فيه ، ثم إذا أدت بهم دراستهم المقارنة

بين الاسلام و الفلسفات و النظم الأخرى و تكشفت عليهم الحقيقة لا يتأخرون لحظة واحدة فى الاعتراف بالحق وقبول ماصح لديهم نتيجة لدراستهم الطويلة العميقة من فكرو منهج للحياة .

أمامنا اليوم أمثلة عديدة لأعلام المفكرين الغربيين الذين عكفوا على محاربة الاسلام مع متابعة دراستهم له عقوداً من السنين ثم توصلوا بعد التجارب الطويلة إلى أن الاسلام هو المنهج الحق لسعادة الانسان ، و آخر هؤلاء المفكرين الغربيين «رجاء جارودى» ذلك المفكر الفرنسى الكبير الذى عكف على خدمة الفكر المادى من كل نوع نحو نصف قرن من الزمان ، و لكن الله سبحانه من عليه بنعمة الاسلام فأشهر إسلامه من غير ترغيب ولا ترهيب ، و اعتنق بالاسلام باخلاص و اقتناع فى رمضان الماضى (عام ١٤٠٢هـ) .

ليس إسلام « جارودى » حدثاً عادياً يحدث مع مسيرة الدعوة إلى الله هنا وهناك فتنة لأخرى ، لكنه يحمل فى طيه أكثر من مغزى نظراً إلى ما حمله من لواء الأفكار والفلسفات المادية بذاتها ، وشغل من مناصب هامة فى مجال السياسة والفكر حيث كان مفكراً كبيراً و فيلسوفاً عظيماً و سياسياً له من النشاط فى كل مجال ما يعرفه العالم المعاصر .

و قد جاء إسلامه فى وقت كانت الجهود فيه متجهة إلى تعقيم الفكر الاسلامى و تفسير منهج الاسلام للحياة بما يهدم كل أساس للعدالة الاجتماعية التى يتميز بها هذا المنهج العظيم ، و يهيمن على جميع الأيدلوجيات النظرية و الفلسفات المنهجية التى شغلت فكر الانسان المعاصر فى العالم الحديث ، و تاهت به فى متاهات من الحيرة والشذوذ الفكرى والخواء الروحى والعقد النفسية ، مما لم يجن منه الانسان أى نتيجة إيجابية على أى مستوى فردى أو جماعى فى العالم الحديث ، بل بالعكس من ذلك

مزيداً من التركيز على روح الاخلاص و التضحية

فقد جنى من أجل ذلك كله جنايات خطيرة على نفسه و بنى جلدته .

و لقد جاء فى خلال محاضرات « جارودى » التى ألقاها أخيراً فى الكويت العزيزة ، اشارات تتضمن قصة إخفاق الحضارات والفلسفات المادية فى جميع القطاعات الاجتماعية والسياسية ، ورغم أنه عاش هذه الظواهر النظرية كلها و تناولها بدراسات عميقة و بتجارب شخصية فى ضوء الحقائق و الأرقام توصل أخيراً باخلاص و عمق و واقعية إلى أن ذلك كله لا يعدو سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، والتجأ إلى ظل الاسلام وانضوى إلى لواء الفكر الاسلامى حيث وجد ضالته ، والحكمة ضالة المؤمن فحيثما وجدها فهو أحق بها ، وسيكون إسلامه باذن الله تعالى موشر خير لأمثاله .

و أمثلة عديدة لأعلام المفكرين الاسلاميين كذلك ، و لكنهم لم يوفقوا فى مجال الفكر الاسلامى بأداء أى دور بناء و لم يجد فيهم المتعطشون لروح الاسلام و المتطلعون إلى مشاهدة مثال عملى للحياة الاسلامية أى نموذج يكون أجدر بالتقليد و الاتباع .

أليس ذلك عاملا كبيراً من بين العوامل الكثيرة التى يتولى إخفاق المجهودات المكثفة و الموسعة التى تبذل اليوم من منابر إسلامية كثيرة و بأساليب جذابة متعددة فى مجال خدمة الدعوة و الفكر الاسلامى .

لماذا هذه المفارقات كلها لدى هذه الأمة العظيمة التى أخرجت لأداء أعظم دور لهداية الانسان ، و لماذا ذلك التضامن و الاخلاص و التفانى عند أولئك المعتدين الظالمين الذين يريدون أن يدكوا صرح الانسانية و يعيدوها إلى حضارات مظلمة و فلسفات عقيمة ! ؟ .

هل لهذا التساؤل من جواب ؟

سعيد الأعظمي الندوي

التوجيه الإسلامي

العالم الاسلامى فى القرن العاشر الهجرى

[فصل مهم من كتاب «الامام السرهندى» لسماحة العلامة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى، الذى صدر حديثاً، وهو سلسلة مهمة من رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام، ننشر هذا الفصل نظراً إلى قيمته التاريخية والدعوية الكبيرة]

[التحرير]

★ أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر :

ينبغى - ونحن فى هذه الدراسة - أن لا نغفل حقيقة ذات شأن وهى أن العصر الذى يولد فيه الانسان، والعالم الذى يعاصره، و المجتمع الانسانى الذى يعيش فية، هو كالنهر الجارى، تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى، و تتسق معها، فلا يمكن - لأجل ذلك - أن يبقى بلد - مهما كان بعيداً نائياً، تعيش فى عزلة عن سائر العالم - غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثورات العظيمة، والقوى المتحاربة، والحركات المؤثرة القوية، التى تجرى فى بلدان العالم الأخرى، لا سيما إذا كان مركز هذه الأحداث و الوقائع، و الثورات و التطورات، بلداً يشاركه فى العقيدة و المذهب، و المشرب، ويجاوره فى المكان، و لذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير فى هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب، بل يلزمه أن يلقى

نظرة عامة على العالم الاسلامى كله فى القرن العاشر، لاسيما البلدان المسلمة المجاورة، التى كانت بينها وبين الهند أواصر علمية، و دينية و حضارية، و كانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة، و نفحاتها الرخية الناعمة، على بعد الدار وطول المسافة.

★ الوضع السياسى :

لقد نال الشرق الأوسط - وهو المنطقة المركزية للعالم الاسلامى - فى أوائل القرن العاشر - بعد زمن طويل - (ولعله بعد السلطان صلاح الدين الأيوبى المتوفى ٥٨٩هـ) استقراره السياسى، و اجتمعت البلدان العربية الواقعة فى آسيا الغربية تحت الراية التى كان رافعوها يعتزون بلقب «حامى الاسلام، و خادم الحرمين الشريفين، و حارس المسلمين» و كانوا قد نفخوا فى الخلافة الاسلامية - التى عادت فى مصر كالبابوية النصرانية بعد استشهاد آخر الخلفاء العباسيين «المستعصم بالله» عام ٦٥٦هـ - حياة جديدة، و لو كان ذلك تحت مصالحهم السياسية، فقد فتح ياور السلطان سليم الأول مؤسس الخلافة العثمانية - ٩١٨-٩٢٦هـ بلاد الشام عام ٩٢٢هـ، و مصر عام ٩٢٣هـ، التى كانت تحت حكم المماليك منذ قرنين ونصف قرن من الزمان، و كان حاكم مصر - حين زحف إليها السلطان سليم - قانصوه الغورى، و أعلن السلطان سليم فى نفس سنة ٩٢٣هـ إعادة الخلافة، و أنه خادم الحرمين الشريفين، و وصى أميناً عليهما من قبل المسلمين، و دخلت بعد ذلك جزيرة العرب، ثم البلدان العربية الاسلامية، الواقعة فى أفريقيا الشمالية - عدا المغرب - تدريجياً تحت حكم السلطان سليم، ثم تحت حكم خليفته السلطان سليمان القانونى، (٩٢٦-٩٧٤هـ) الذى يذكره المؤرخون الغربيون باسم Sulaiman The Magnificent) يعنى سليمان الكبير العظيم.

وقد كان عهد سليمان - الذى ولد الامام السرهندى قبل وفاته بثلاث سنوات -

عهد ازدهار الامبراطورية العثمانية ورقيها، إذ كانت ترفرف رايتها على النمسا والمجر فى أوروبا ، و تزحف جيوشها المنتصرة - فى جانب آخر - إلى إيران ، و كانت العراق كذلك ، مثل الشام و مصر ، انضمت إلى مملكته الواسعة ، فكانت حاكماً لأكبر إمبراطورية على الأرض فى عصره ، أما فى عهد السلطان مراد الثالث ٩٨٢-١٠٠٤ه فقد اشتملت مملكته على جزيرة قبرص و تونس ، و عدد من ولايات إيران ذات الخصب و الريع الكثير ، و اليمن ، و تم فى عصره عام ٩٨٤ه بناء الحرم المكى الشريف ، و كان الامام السرهندى - إذ ذاك - قد بلغ سن الشعور و ليس ببعيد أن يكون على علم بهذه الأحداث ، و طبيعى أن يكون المسلمون فى ذلك العصر - و لو كانوا مسلمى الهند - يشعرون بفرح و اعتزاز إزاء فتوح الدولة العثمانية ، و اتساع رقعتها ، و قد كان الأتراك العثمانيون معروفين بصلابتهم فى العقيدة السنية ، وتمسكهم بالمذهب الحنفى ، الذى كانت تدين به أكثرية مسلمى الهند .

و ظهرت فى بداية هذا القرن عام ٩٠٥ه الأسرة الصفوية فى إيران و كان مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصفوى ٩٠٥ - ٩٣٠ ، و قد أحكمت هذه الأسرة - تدريجياً - استيلاءها على هذه المنطقة كلها ، و استقلت استقلالا تاماً ، و كانت حكومة قوية إزاء الدولة العثمانية ، و قررت المذهب الامامى الجعفرى - خلافاً للدولة العثمانية - مذهب الدولة الرسمى ، و استخدم إسماعيل الصفوى كل الوسائل ، و استغل السلطة لنشر هذا المذهب ، و الدعوة إليه ، و حاز فى سبيل ذلك نجاحاً عظيماً منقطع النظير فى تاريخ الحكومات التى تعنى بتحويل الاتجاه الدينى للصالح السياسية ، فأصبحت هذه الحكومة - بعد أن أقامت على حدودها سوراً بشرياً يقوم على الخلاف المذهبى - بمعزل عن أن تذوب فى دولة العثمانيين التى انتشر فيها من يشاركهم فى المذهب السنى الحنفى ، من القسطنطينية إلى لاهور ودلهى ،

و كانت الأسرة الصفوية تحكم من بغداد إلى هرات .

و كان شاه عباس ٩٩٥-١٠٣٧ه الذى هو أعظم سلاطين هذه الأسرة ، و يعرف فى التاريخ بشاه عباس الكبير ، و الذى يستحق لأعماله البنائية أن يدعى شاهجان (١) أسرته ، معاصراً للامام السرهندى ، و قد بلغت الدولة الصفوية فى عصره أوجها ، و ذروة مجدها ، فحارب الأتراك ، واحتل نجف و كربلا ، و كان هو معاصراً للملك جلال الدين أكبر ، والملك نور الدين جهانكير ، و أصيبت هذه الأسرة بعد شاه عباس بالضعف و الزوال .

و كانت البقعة الثانية من بقاع العالم الاسلامى الهامة بلاد تركستان التى دامت لقرون طويلة مركزاً للحضارة الاسلامية ، و الثقافة العربية الدينية ، و تعرف فى الكتب القديمة بـ « ما وراء النهر » و كانت لها مساهمة كبيرة - بعد العراق - فى تدوين الفقه الحنفى ، و خلفت عدداً من الكتب القيمة الخالدة (٢) التى لا تزال مقررة فى مناهج الجامعات الاسلامية فى الهند ، و نشأت فيها الطريقة النقشبندية - التى ينتسب إليها الامام السرهندى و شيوخه - و نمت و ترعرت ، و انتشرت منها فى أجزاء العالم الاسلامى ، لقد دخلت هذه البلاد ، المخصبة الغنية بالثروات و العبقريات ، فى حكم الأسرة الشيبانية فرع الأزبكية فى بداية القرن العاشر عام ٩٠٥ه ، وبقيت تحت سلطانهم من تلك السنة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى - إلى ثورة روسيا البلشفية - إلا فترة قصيرة حل فيها الملك ظهير

(١) هو الامبراطور شهاب الدين شاهجان بن جهانكير التيمورى (م١٠٧٥ه) بانى التاج محل فى آكره و الجامع الكبير فى دلهى .

(٢) كهداية الفقه للرغينانى ، و شرح الوقاية و غيرهما لصدر الشريعة ، و ظلا مقررين فى المنهج الدراسى طوال قرون .

الدين بابر التيمورى بمساعدة الصفويين ، على ما وراء النهر ، و سيطر على سمرقند عاصمتها - آنذاك - ثم أصبحت « بخارى » فى القرن العاشر عاصمة الدولة الشيبانية فى عهد الملك عبيد الله بن محمد ٩١٨-٩٤٦هـ ، و الملك عبيد الله بن اسكندر ٩٦٤-١٠٠٦هـ ، وعادت بسببها بخارى مرة ثانية ، مركزاً للحياة السياسية الفكرية.

و أقرب البلدان المجاورة للهند الذى يقع غربيها ، هو أفغانستان ، تداول الحكم عليها فى بداية القرن العاشر أزابكة تركستان ، و صفويو إيران و غيرهما من الغزاة الطامحين المحليين ، فى فترات متخللة بين حكم الأسرتين المتقدم ذكرهما ، و كان يحكم « كابل » و « قندهار » المغول تارة و الايرانيون أخرى ، أما هرات فلوقوعها على حدود إيران كانت أكثر الأحيان تحت سلطة الأسرة الصفوية ، و فى عام ٩٢٨هـ فتح الملك بابر « قندهار » ، ثم لما أسس الدولة التيمورية فى الهند ، جعل مقره كذلك فى الهند ، وكان يحكم من هناك ولايات « كابر » و « بدخشان » و « قندهار » ، و افتتحت أفغانستان - فى ذلك الوقت تحت تأثير دولتين عظيمتين قائمتين فى الهند ، و إيران - عهداً جديداً ، أقرب إلى الأمن و التنظيم ، و كانت أن انقسمت بين هاتين الدولتين ، فدخلت ولايتا هرات و سيستان فى إيران ، وإن كان الأزابكة يحملون عليهما حيناً لآخر ، وأصبح « كابل » جزءاً من الدولة المغولية ، وكان قندهار يتداول السلطة عليه المغول و الايرانيون ، و أنشأ الحاكم سليمان مرزا ابن أخى الملك بابر - الذى ولاه بابر ولاية بدخشان - فى شمال كوهستان حكومة شبه مستقلة ، أما ما عدا هذه الولايات من سائر المناطق ، فكانت تحت حكم الشيبانيين ، وفى عام ٩٦٥هـ احتل طهماسب ملك إيران ، ولاية « قندهار » واستمرت تحت احتلال الايرانيين إلى عام ١٠٠٣هـ ، ثم سلمها ولى العهد مظفر حسين عام ١٠٠٣هـ إلى الملك أكبر ، و من ثم كانت أفغانستان ولاية من ولايات الدولة المغولية فى

الهند ، و دام الحال على ذلك إلى القرن الثانى عشر حتى زالت دولة آل بابر التى استمرت مائتين و أربعين ٢٤٠ عاماً على أيدى نادر شاه افشار عام ١١٥١هـ .

و لما بدأ القرن العاشر كانت الأسرة اللودهية تحكم الهند ، و قد قتل آخر ملوكها إبراهيم اللودهى عام ٩٣٢هـ، على يد مؤسس الدولة المغولية الملك ظهير الدين محمد بابر الكوركانى (٨٨٨ - ٩٣٩هـ) و تأسست على أنقاض الدولة اللودهية ، المملكة المغولية ، التى كانت من أكثر دول الهند استحكاماً و تنظيماً ، و أوسعها رقعة ، و أطولها عمراً ، كانت الأسرة اللودهية ، - لتمسكها بالتقاليد الأفغانية ، و النسب الأفغانى - متمسكة بالاسلام ، متقيدة بالمذهب السنى الحنفى ، لم تعرف التجدد و « العلمانية » و السياسة اللادينية ، و كان من أكثر هذه الأسرة تديناً ، و تقديراً للعلماء ، و تشجيعاً للعلوم الاسلامية الملك سكندر اللودهى (م٩٢٣هـ) و سعدت الهند خمس سنوات من هذا القرن بحكم الملك شير شاه السورى (٩٤٦-٩٥٢هـ) ، الذى لم ينهض فى تاريخ الهند الاسلامى ملك متدين عالم ، أحسن منه تنظيماً و تقنيناً ، و أكثر منه توفيقاً للاعمال الخيرية ، و تحقيق المشاريع الهائلة فى المصلحة العامة ، و لم يحصل للهند بعد وفاة الملك شير شاه السورى ، إلى تولى الملك أكبر للدولة ، الاستقرار السياسى ، و التنظيم السليم ، و لم يقر للحكومة قرار ، ولم يذق سكان البلاد طعم الأمن و الرخاء و الراحة ، فقد كان الملك سليم شاه خليفة أبيه العبقرى السلطان شير شاه السورى ، لا يمت إلى أبيه فى تنظيمه ، و تدبير مملكته بسبب ، و لم يستطع كذلك الملك نصير الدين همايون خليفة الملك بابر (٩٣٧-٩٦٣هـ) أن يحكم الهند فى أمن و استقرار ، فقد شردته حملات الملك شير شاه السورى الظافرة ، و خذلان إخوته كل مشرد ، و كان شأنه هذا حتى اتصل بطهماسب الصفوى ملك إيران ، و طلب منه المساعدة ، فتهيأ له الاستقرار ،

واعتلى الملك أكبر عام ٩٦٣هـ عرش الدولة المغولية ، ودام فى الحكم نصف قرن ، بأبهته و عظمته و سلطانه غير منازع .

و تولى نور الدين جهانكير الملك فى عصر الامام السرهندى نفسه ، حينما كان ابن ثلاث و أربعين سنة ، و توفى الامام السرهندى فى عهده ، و كانت هناك - عدا هذه الدولة المركزية التى جعلت عاصمتها دلهى - حكومات إقليمية فى ولاية كجرات ، و بيجافور ، و كولكنده ، و أحمد نكر ، كانت تحكم هذه المناطق بصورة مستقلة ، و كانت الحكومات الثلاث المؤخرة الذكر من الحكومات التى كانت تعتنق المذهب الشيعى .

★ الوضع الدينى و الروحى

لقد كان التدين سمة سائدة - إذ ذاك - على العالم الاسلامى كله ، فكان عامة الناس - رغم انحطاطهم الخلقى و العلمى - راسخى الايمان ، محبين للاسلام ، موالين له ، و كانوا يمتازون بالحمية الدينية ، و الحماسة الاسلامية ، على تصورهم الخاص ، و بالرغم من أنهم كانوا يقترفون كثيراً من البدع ، و يرتكبون ما يخالف الاسلام - أحياناً - ولكن كانوا شديدى الكراهية للكفر والالحاد ، يشمئزون منهما ويتبرأون .

و لأجل هذا الذوق الدينى العام ، و الطبيعة الايمانية السائدة ، كان الملوك المسلمون - الذين لا يعبأون بأى قوة مناوئة كبيرة ، و كانت أوروبا ترتعد من قوتهم العسكرية - مضطرين لاحترام شعائر الاسلام ، و إعلان صيانة الدين ، و حماية بيضة الاسلام و المسلمين ، و لم تكن قلوب العامة من الناس ، تستشعر عظمتهم ، و تحبهم ، حتى يتظاهروا بهذه الناحية الدينية ، ولذلك لم تتوطد حكومة السلطان سليم الأول ، و لم تثبت جذورها ، حتى لقب نفسه بخليفة المسلمين ، و خادم الحرمين الشريفين ، و أبدى أثنا إقامته بدمشق ، الحب و التقديس للديار

المقدسة ، و الاجلال لها ، و أنفذ فى شهر ذى الحجة عام ٩٢٣هـ قافلة للحجاج من دمشق ، و بعث معهم - لأول مرة فى الدول العثمانية - بهدية كسوة الكعبة ، ومن ذلك اليوم تسمى السلاطين الأتراك بـ « خادمى الحرمين الشريفين » ومهد لهم طريق المجد ، وعظمت أقدارهم فى أعين الناس ، ونجد أمثلة عديدة فى حياة السلطان سليمان الكبير للتواضع ، والعواطف الدينية العميقة ، فقد انتسخ بيده ثمانية مصاحف للقرآن الكريم ، لا تزال محفوظة فى المكتبة السليمانية ، و يظهر من ديوان شعره أنه مسلم راسخ العقيدة فى الاسلام ، و أنه جدد عمارة الكعبة المشرفة بعد أن أخذ فتوى العلامة أبى السعود (م ٩٥٢هـ) صاحب « تفسير أبى السعود » ، وبنى جداول مخصصة بحصصة فى مكة المكرمة ، و أكمل السلطان مراد (م ٩٨٤هـ) بناء الكعبة المشرفة - و هو البناء الذى لا يزال إلى الآن - هذه بعض مآثر السلاطين العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى .

و كان الناس فى الدولة الشيعية بايران كذلك متدينين ، عقليتهم عقلية دينية ، ويغلب عليهم الطابع الدينى ، و كان السلاطين الصفويون يغذون هذه الناحية الدينية و ينمون هذه العواطف و يتظاهرون بحب آل البيت و إجلالهم و يستغلون ذلك لقوتهم السياسية و إحكام الدولة ، و وقوعهم موضع القبول فى الناس ، فقد تجشم شاه عباس الأول - أعظم سلطان فى الدولة الصفوية - مشقة السفر من أصفهان إلى « المشهد » (مدفن على الرضا) حوالى ثمانمائة ميل ، مشياً على الأقدام ، و حضر النجف و قام بخدمة الكناسة لضريح سيدنا على - كرم الله وجهه .

و بلغ حب الناس لشاه عباس و اعتقادهم فيه ، و غلوهم فى إجلاله ، إلى حد الخرافات و السخف العقلى ، و شاعت فى الناس عنه قصص غريبة ، وروايات طريفة .

أما سكان تركستان و أفغانستان ، فان رسوخهم فى العقيدة و صلابتهم فى التدين ، و تمسكهم بالسنية و المذهب الحنفى ، شئ يضرب به المثل ، فكان الحكام و الأمراء و الوزراء ، و أصحاب البلاط - كل حسب مستواه فى المعيشة - وحالة من الترف - يتفقون معهم و يسايرونهم فى كل ذلك .

وكان تأسيس الدولة الاسلامية فى الهند على أيدى الحكام من الأسر الأفغانية أو التركية ، فكان - لأجل ذلك - تأثير الدين عميقاً فى قلوب أهل هذه البلاد ، و إن كان هذا التأثير ساذجاً بسيطاً ، شأن العقلية الأفغانية و التركية ، وذوقها الخاص ، و ما زال الناس متمسكين بالسنية و المذهب الحنفى - باستثناء بعض المدن الساحلية ، و منطقة مالابار فى جنوب الهند - و كان المذهب الحنفى هو الذى يطبق فى الدولة ، و يتحكم فى المحاكم ، و ألفت هنا بعض الكتب المهمة فى الفقه الحنفى كـ « الفتاوى التتار خانية » و « فتاوى قاضى خان (١) » .

ويمتاز عدد من السلاطين فى تاريخ الهند الاسلامى بحمايتهم الشريعة الاسلامية ، و السنة المطهرة ، و كراهة الكفر و الالحاد ، و محاربة البدع و المنكرات ، و الحمية الدينية و الغيرة الاسلامية ، ويكفينا أن نذكر « محمد تغلق » و « فيروز تغلق » فى القرن الثامن ، و السلطان سكندر اللودهى فى القرن العاشر ، فقد كان التدين - حسب ما يروى لنا مؤلفو « طبقات أكبرى » و « تاريخ فرشته » و « تاريخ داؤدى » - سائداً فى عهد السلطان سكندر ، و كان يبدو من تمسك الناس بالدين ، و شدة أخذهم به أنه نفخت فى الحياة روح جديدة ، و كان الدين

(١) و هذا قبل تدوين « الفتاوى العالمكيرية » بزمن طويل ، و قد نال هذا الكتاب شهرة واسعة فى العالم الاسلامى ، و يعرف بـ « الفتاوى الهندية » فى مصر و الشام و العراق .

أعز و أحب إلى السلطان من نفسه ، و كان السلطان من أول حياته - كما يصفه هؤلاء المؤلفون - متحمساً للدين ، يحب المذاكرة العلمية ، و بدأ الهنادك فى عهده بدراسة اللغة الفارسية ، و قبلت طائفة « كائسته » الهندكية توجيه السلطان إلى دراسة اللغة الفارسية لغة الديوان ، فدرسوها و تولوا وظائف الكتابة و الديوان فى المملكة ، ونهى السلطان عن بدعة حمل الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازى(١) التى كانت تحمل وفاءً بالنذر ، و اعتقاداً فى البركة و النصر ، و كانت عادة سنوية مقدسة ، كما أصدر أوامر مشددة فى منع النساء من زيارة الضرائح و المشاهد ، ويقول بعض المؤرخين : إنه نهى حمل « الضرائح » المصنوعة من القرطاس والقصب المنسوبة إلى سيدنا الحسين بن على الشهيد و عبادة « سيتلا » - آلهة الجدرى - نهياً قاطعاً (٢) ، و يقول مشاق : إنه هدم كثيراً من المشاهد المزورة و سواها بالأرض و أجرى مكانها الأنهار (٣) » .

و كان السلطان سليم شاه السورى يؤم الناس فى الصلوات فى المسجد ، وكان يجتنب المسكرات أشد الاجتناب .

لقد كان هذا العصر عصر رقى التصوف ، و ازدهار السلاسل و الطرق ،

(١) هو السيد سالار مسعود الغازى دفين مدينة بهرائج فى الولاية الشمالية الغربية و هو من أشهر الأعلام فى الهند ، مات شهيداً سنة ٦٨٨هـ ، بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامقة البناء ، و الناس يفدون إليه من بلاد شاسعة و يزعمون أنه كان عزباً شاباً لم يتزوج ، فيحتفلون لعرسه ، و ينذرون له أعلاماً ينصبونها على قبره .

(٢) تاريخ هندوستان لذكاء الله الدهلوى ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٣) أنظر « واقعات مبشتاق » .

حتى لم تبق بقعة من بقاع العالم الاسلامى خالية من طريقة من طرق الصوفية ، و كانت الطرق حديث المجالس و النوادى ، و كانت « بخارى » و « سمرقند » - المركزان العلميان ، و الروحيان ، و المدينتان المعروفتان - فى تركستان ، و « بدخشان » و « هرات » فى أفغانستان ، و « طنطا » و « الاسكندرية » فى مصر و « تعز و صنعاء » فى اليمن ، و « شحر » و « تريم » و « سيون » فى حضر موت ، مراكز كبيرة للعلماء و الصوفية ، و مشايخ الطرق ، و كانت أسرة باعلوى العيدروسية فى حضرموت ذات شهرة و قبول فى الناس و معروفة بالفضل و العلم وفى هذا العصر كان الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن أبى بكر شيخاً ذا مكانة مرموقة يعرف بقطب العالم ، و كانت مدينة « تريم » مركز أشراف آل باعلوى ، ومن مشاهير أولياء هذا العصر الشيخ سعد بن على السوينى باعدحج السعيد ، الذى ذكره الشيخ محى الدين عبد القادر العيدروسى (٩٧٨ ، ١٠٣٧هـ) فى كتابه الشهير « النور السافر فى رجال القرن العاشر » ، و ختم بترجمته - التى تمتد من صفحة ٤٦٦ إلى ٤٨٠ - الكتاب (١) .

و قد كان للطريقة القادرية ، و للطريقة الجشتية - بفرعيها النظامية و الصابرية - رواج و انتشار ، نبغ فيها شخصيات عديدة معروفة بالعلم و الفضل و الصلاح و الزهادة ، و لكن من الحق أن يقال إن هذا القرن قرن الشطارية العشقية التى تسلمت زمام القيادة الروحية لهذه البلاد من الطريقة الجشتية ، وسخرت الهند كلها .

أسس الطريقة الشطارية الشيخ عبد الله الخراسانى الذى نزل الهند ، فى أوائل القرن التاسع بالتقريب ، و استوطن « ماندو » عاصمة الولاية الخليجية فى الهند الوسطى ، و توفى سنة ٨٣٢هـ ، و دفن داخل القلعة فى ماندو ، كانت حياته حياة الأمراء ،

(١) ألف هذا الكتاب فى أحمد آباد عام ١٠١٢هـ .

يمتاز بالجذب و التأثير ، انتفع به خلق كثير ، و انتشرت طريقته فى الهند بسرعة فائقة ، و لهذه الطريقه فرعان ، ينتمى فرع منهما إلى الشيخ محمد غوث الكواليارى ، و بينه و بين الشيخ الشطارى ثلاث وسائط ، و ينتمى الفرع الثانى إلى الشيخ على بن قوام الجونبورى ، - المعروف بشيخ على عاشقان السرائى ميرى (١) - بينه و بين الشيخ عبد الله الشطارى واسطتان ، و قد مزجت هذه الطريقة ، لأول مرة ، تعاليم « يوكا (٢) » بالتعاليم الصوفية ، و اختارت من الأولى بعض الرياضات و الأوراد ، و حبس النفس ، و لقنت هذه التعاليم المريدين و السالكين ، كما ضمت إلى الطريقة « علم السيمياء » ، وقد جاءت تفاصيل هذه الأوراد ، وشروح الرياضات الخاصة فى الرسالة الشطارية التى ألفها الشيخ بهاء الدين بن إبراهيم الأنصارى القادرى (٣) ، و توجد قصيدة للشيخ محمد الشطارى فى كتابه « كليد مخازن »

(١) اقرأ ترجمته الحافلة فى « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى الجزء الرابع .

(٢) نظام الرياضات الروحية و البدنية فى الهند القديمة .

(٣) و كان فى هذا القرن من الطرق المنتشرة فى الهند الطريقة المدارية ، التى أسسها الشيخ بديع الدين المكن بورى (م٨٤٤هـ) و كان أساس هذه الطريقة على فكرة « وحدة الوجود » و الكشف عن معانيها و محتوياتها ، و التجريد الظاهرى - حتى يقتصر على ستر العورة الغليظة - و التوكيل الصرف ، وكلما تطاول الزمن مالت هذه الطريقة إلى التحلل و الانحطاط ، حتى أطلق لفظ « مدارى » على التكسب بالألعاب البهلوانية ، و قد فقدت هذه الطريقة فى القرن العاشر تأثيرها و قبولها فى الخاصة ، و لم نعثر بعد البحث و التنقيب فى « نزهة الخواطر » - الجزء الرابع - الذى أحصى فيه مشايخ كل طريقة احصاء كاملا تقريباً ، إلا على رجلين كانا منخرطين فى سلك الطريقة المدارية .

- مفتاح الخزائن - تفيد عقيدة وحدة الوجود ، و عدم التفريق بين المسجد و البيعة ، و المسلم و البرهمى ، و عقيدة ظهور الاله و تجليه فى هذه المخلوقات كلها ، لأن كل ذلك ناشئ من هذه الوحدة ، و هى ألوانها و مظاهرها المتنوعة ، وجاء فى آداب هذه الطريقة وشعرها ما قد يقلل من قيمة العلم الذى هو « الحجاب الأكبر » ، و من قيمة العبادات ، و من أهمية الايمان و ضرورته ، و يرفع شأن الحب الالهى ، و السكر و التفانى فيه ، و التجرد عن كل ما يتصل بالمادة و الجسم ، و الحياة الدنيا .

و كان أشهر رجال هذه الطريقة الشطارية ، و أكثرها تأثيراً ، الشيخ محمد غوث الكواليارى (م٩٧٠هـ) الذى حصل له القبول العام ، و أصبح المرجع للناس ، و كانت تضاهى أبهته و فخفختهم أبهة الملوك و الأمراء فخفختهم ، وتوازى دولته الروحية دولة البلاط ، و كان دخل عقاراته تسعمائة ألف عملة فضية (١) ، و كان له أربعون فيلا ، و جنود مجندة من الحاشية والخدم ، و كان عند ما يخرج فى سوق مدينة « آكره » تحتشد الحشود ، و يقف جموع الناس فكان يسلم على كل واحد منهم بانحناء ، حتى إنه لا يستقر جلوسه على السرج ، و لا تعود فقاره ظهره إلى مكانها ، وكان قد استمال الملك أكبر كما جاء فى تصريح العلامة عبد القادر البدايونى - و أدخله فى حلقة مريديه ، و لكن الملك لم يلبث أن خلع من رقبته طوق إرادته و بيعته ، و كان لزهده - رغم هذه الأبهة الملوكية و الثروة الأميرية - صيت ذائع ، يتناقل الناس أخباره ، و يتحدثون به ، و كان عند تسليمه على الناس ينحنى كانحناءة الركوع ، و لو كان من يسلم عليه مسلماً أو كافراً ، و كان العلماء

(١) و فى بعض الروايات عشرة ملايين .

ينتقدون ذلك ، و يعترضون عليه ، ومن مؤلفاته « جواهر خمسة » و « معراجية (١) و « كنز الوحدة » و « بحر الحياة » (٢) و كان له تأثير كبير على الهند ، و راجت الطريقة الشطارية (٣) و انتشرت ، و كانت ولادة الامام السرهندى بعد وفاته بعام .

و كان من كبار أصحاب هذه الطريقة ومشايخها الأجلة الشيخ على بن قوام الجونبورى المعروف بعلى عاشقان السرائميرى (م ٩٥٥هـ) ، و الشيخ لشكر محمد البرهانبورى (م٩٩٣هـ) ، و الشيخ الله بخش الكنده مكتيسرى (م١٠٠٢هـ) كانوا مرجع خلق كثير من عباد الله ، و قد ذكر بعض المؤرخين عن الشيخ على عاشقان السرائى ميرى أنه لم تظهر الكرامات العجيبة على يد أحد بعد الشيخ عبد القادر الجيلانى ، مثل ما ظهرت على يديه (٤) و كان خليفة الشيخ محمد غوث الكوالیارى ، الشيخ ضياء الله الأكبر آبادى (م١٠٠٥هـ) تلميذ العلامة الشيخ

(١) كان ادعى لنفسه أنه عرج به إلى السماء مثل معراج الرسول - ﷺ - و أحدث ذلك فوضى و شغباً فى علماء كجرات .

(٢) اجع للتفصيل فى تاريخ المشايخ الشارية ، « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٣) هذا الكتاب ترجمة لكتاب « امرت كند » ، يقول الأستاذ محمد اكرام عنه فى كتابه « رود كوثر » : « نقل فيه تفاصيل العادات ، و الأعمال و الاوراد ، التى يشتغل بها العباد الهنادكة ، و أصحاب « اليوك » إلى اللغة الفارسية ، و كان تعرض لهذه الأعمال فى كتابه الذى ألفه من قبل « جواهر خمسة » تعرضاً قليلا ، وتدل هذه المعلومات على علاقة الطريقة الشطارية بـ « اليوك الهندكى » (ص ٣٤-٣٦) .

(٤) راجع للتفصيل « العاشقية » تألف عارف على ، و « نزهة الخواطر » ج ٥

وجيه الدين ، سكن فى « أكبر آباد » ـ وكانت عاصمة الملك أكبر - ٣٥ عاماً ، و حصل له القبول فى الناس ، و دعى إلى بلاط الملك أكبر عدة مرات ، يقول العلامة عبد القادر البدايونى : « سلمت عليه مرة فثقل عليه و ساءه ، و شعر بأنى أهنته » ، و استهزأ بهذا الشعار الاسلامى و السنة الطيبة ، و قد صوره البدايونى تصويراً سيئاً ، وذكر أخباراً وروايات تدل على استخفافه بالشريعة الاسلامية (١) .

عدا هؤلاء المشايخ المذكورين ـ أعلاه ـ كان الشيخ عبد الله السنديلوى (٩٢٤-١٠١٠هـ) و الشيخ عيسى بن قاسم السندى خليفة الشيخ لشكر محمد عارف بالله ـ و كان معاصراً للامام السرهندى ، و يقاربه فى السن - من مشاهير مشايخ الطريقة الشطارية العشقية (٢) .

وكان هناك مشايخ كبار ـ غير هؤلاء المشايخ المشهورين من السلسلة الشطارية العشقية ـ ينتمون إلى سلاسل وطرق أخرى ، كان منهم الشيخ جائين لده السهنوى(٣) (م٩٩٨هـ) كان يدرس كتاب « الفصوص » و « نقد النصوص » ، و كان الملك أكبر يعتقد فيه ويجله ، و شاهده يوماً يصلى « الصلاة المعكوسة » فانصرف عنه ، وشيخ آخر يسمى الشيخ عبد الرزاق الجهنجهانوى (٨٨٦-٩٤٩هـ) كان من أصحاب الطريقة القادرية الجشتية ، و كان ـ رغم ـ كونه عالماً كبيراً يزاول التدريس و التصنيف ـ يدعو إلى « وحدة الوجود » ، و يتحمس لمذهب الشيخ محيى الدين ابن عربى وقد ألف فى هذا الموضوع عدة رسائل ، و كان الشيخ عبد العزيز شكربار (٨٥٨-٩٧٥هـ) كذلك يقول « بوحدة الوجود » ، و كان صوفياً يمتاز

(١) راجع للتفصيل « منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر ، و « نزهة الخواطر » ج ٥.

(٢) أنظر « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٣) سهنة قرية فى مديرية كركانوه ، فى بنجاب الشرقية ، يوجد فيها عين حارة مشهورة .

بالأحوال و المقامات ، و كان يلقى دروساً فى « فصوص الحكم » و شروحه ، وهو من أجداد الامام ولى الله الدهلوى لأمه .

ونبغ فى هذا القرن الشيخ عبد القدوس الكنكوهى (م٩٤٤هـ) وعلا صيته ، وطنت حصاته ، ونالت الطريقة الجشتية الصابرية منه حياة جديدة ، و عادت غضة طريفة ، مؤثرة قوية ، و كان يبوح بأسرار « وحدة الوجود » على ملأ من الناس ، يدعو إليها وينادى بها ، و كان الشيخ قطب الدين بنادل (٧٧٦-٩٢٥هـ) مرشد الطريقة الفلندرية ، والشيخ كمال الدين (م٩٧١هـ) فى قرية كيتهل - بمديرية أنباله - من رؤساء الطريقة القادرية ، و مرشديها الكبار ، و قد استعادت بهما هاتان الطريقتان رونقهما و رواءهما ، وذكر الامام السرهندى عن الشيخ كمال المذكور - أعلاه - نقلا عن والده الشيخ عبد الأحد ، أنه قال : « عند ما ينظر بنظر « الكشف » ، يبين لنا أنه لم يوجد فى السلسلة القادرية العالمية بعد شيخ المشايخ الشيخ عبد القادر الجيلانى أفضل و لا أكمل حالا من الشيخ كمال (١) » .

و كان الشيخ نظام الدين الأميتهوى (٩٠٠-٩٧٩هـ) فى ولاية « اوده » من كبار رجال السلسلة الجشتية مع الدفاع عن الشريعة الاسلامية و الاتباع للسنة النبوية ، و صلاح السيرة ، كان يعتمد على « إحياء العلوم » و « العوارف » و « الرسالة المكية » ، وقع بصره على كتاب « الفصوص » فى يد بعض الناس ، فنزعه من يده ، و أعطاه كتاباً آخر للمطالعة و القراءة ، و كان « السماع (٢) » عادة متبعة فى طريقته ، إلا أنه كان يجتنب ذلك ، و يتحاشاه (٣) .

(١) أنظر « زبدة المقامات » ، ص ١٠٨ .

(٢) الغناء تارة بالمزامير ، و تارة بغيرها .

(٣) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٤ .

هذه هى الأوضاع الروحية و الدينية السائدة فى العالم الاسلامى - آنذاك - و هؤلاء هم مشايخ الطرق و أصحاب السلاسل فى الهنـــد على اختلاف مسالكهم و مشاربهم ، و تفاوت مراتبهم و درجاتهم ، الذين كانوا أسسوا فى القرن العاشر الهجرى - فى الأماكن المختلفة مراكز تربوية روحية و كان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك و المحبين للزهاد و الصالحين من عامة الناس و خاصتهم يتصلون بهم و ينتمون إليهم ، ويتمسكون بطريقتهم ، وقد شرحت هذه الأوضاع ، و تناولت هذا التاريخ بشئ من الاضافة و إطالة النفس ، ليتيسر للقارىء تقدير الجو الذى تنفس فيه الامام السرهندى ، و العهد الذى عاصره ، وذوقه و ميوله ، و ما كانت من الامكانيات و الصعوبات للعمل الاصلاحى التجديدى العظيم الذى قام به الامام خير قيام .

★ الوضع العلمى :

لم يكن القرن العاشر الهجرى قرن الابتكار و الاختراع فى العلوم و الفنون و الأصالة العلمية ، و النظر الدقيق الذى يتسم « بالاجتهاد » و التدوين الجـــديد للعلوم ، والزيادات ذات القيمة العلمية الكبيرة ، فان هذه الميزات إنما تتجلى بوضوح إلى منتصف القرن الثامن الهجرى ، حيث ظهر نوابغ الرجال والعبقريون فى فنون كثيرة كشيخ الاسلام الحافظ بن تيمية الحرانى الدمشقى (م٧٢٨هـ) ، وشيخ الاسلام تقى الدين بن دقيق العيد (م٧٠٢هـ) ، والعلامة علاء الدين الباجى (م٧١٤هـ) و العلامة الحافظ جمال الدين أبو الحجاج المزى (م٧٤٢هـ) ، و العلامة الحافظ شمس الدين الذهبى (م٧٤٨هـ) ، والعلامة أبو حيان النحوى (م٧٤٥) الذين خلفوا لنا فى علوم الحديث ، و الأصول ، و الكلام ، و أسماء الرجال و العربية آثاراً عظيمة ، و مؤلفات ضخمة ثمينة ، و كان عصر الحافظ ابن حجر العسقلانى

(م٨٥٢هـ) أمام العصر فى الحديث و صاحب « فتح البارى » الذى وصفه بعض الناس بقولهم « لا هجرة بعد الفتح » كذلك ولى من غير رجعة .

فكان القرن العاشر الهجرى قرن الجمع و الترتيب ، و التسهيل و التلخيص لكتب المتقدمين ، و إن كان يتجمل رأس هذا القرن بوجود أمثال العلامة شمس الدين السخاوى (م٩٠٢هـ) و العلامة الحافظ جلال الدين السيوطى (م٩١١هـ) من بحور العلم الزاخرة ، و كبار المؤلفين فى تاريخ الاسلام ، يقول بعض العلماء عن الحافظ السخاوى : إنه لم ينجب التاريخ مثله فى علم الحـــديث وفن الرجال و التاريخ بعـــد الامام الحافظ الذهبى ، و آذن علم الحـــديث بعده بالانحطاط و التدهور ، و يعد كتابه « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » فى أصول الحديث و مصطلحه ، و « الضوء اللامع لأهل القرن التـاسع » فى التاريخ و الرجال ، من الكتب التى لا يوجد لها نظير ، و العلامة السيوطى غنى عن التعريف ، فانه من نبغاء الرجال المؤلفين ، و مشاهيرهم فى تاريخ الاسلام ، و تقوم بعض مؤلفاته مقام الموسوعات العلمية فى مواضيعها ، و لا يزال اسمه حياخالداً فى الأوساط العلمية بتأليفه النصف الأول من تفسير الجلالين ، وبقى مقرراً - إلى يومنـــا هذا - فى المناهج الدراسية فى شبه القارة الهندية و بعض البلاد الاسلامية .

« يتبع »

★★ الاشتراكيـة أو الاسلام ★★
★ ★ ★ ★ ★

الأستاذ خورشيد أحمد

تعريب : الأستاذ نور عالم الأمينى الندوى

أول ما يجب أن يفهم، هو أن الاشتراكية ما هى؟ وبعد تحديد مفهومها و برنامجها يمكن أن يقدر مدى تحديها للعالم الاسلامى تقديراً صحيحاً .

★ تعريف الاشتراكية :

كلمة « الاشتراكية » من تلك المصطلحات العديدة التى يكتنف تحديد مفهومها اختلاف شديد و اضطراب فكرى ، فهذه الكلمة تستخدم بدءاً من تدخل الحكومة العادى فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وانتهاءاً إلى تأميمها الاجبارى لجميع وسائل و موارد الثروة و الأشياء الاستهلاكية ، وما إلى ذلك من المفاهيم ، وتطلق الكلمة بدءاً من الفكر و الفلسفة حتى على المصطلحات الاقتصادية المتواضعة ، و يعبر بها عن الأفكار الاقتصادية و السياسية ذات النوعية المختلفة ، التابعة لشتى العوامل ، و لذلك فيوجد فى مفهوم الاشتراكية من الاختلاف ما ربما لا يوجد فى شأن أى كلمة أخرى ، و من ثم قال البروفيسور « جود » (Joad) : « إن الاشتراكية كقلنسوة فقدت هويتها ، و ذلك أن كل واحد يعنى بارتدائها على رأسه » (١) .

و يشكو كاتب المقال الفاضل لموسوعة العلوم الاجتماعية أيضاً بقوله : إن

(١) Joad, C. E M. Modern political theory, Oxford .

مصطلحات « الاشتراكية » و « الشيوعية » و « الاجتماعية » التى يستخدم كل منها بديلا عن الآخر على العموم ، مبهمة غير واضحة للغاية و محرومة من التعريف الصحيح » (١) .

★ و يشكو أحد الكتاب الانجليز بما يأتى :

« إن هذه الاشتراكية مرئية و غير مرئية أيضاً ، و نظرية و عملية فى وقت واحد ، و تصورى و مادى معاً ، و قديم أقدم و جديد أجد ، إن هذه الكلمة تستخدم بدءاً من العاطفة و الشعور العادى انتهاءاً إلى البرامج العملية الواضحة ، ويعرضها شتى أنصارها فى شتى الصور ، فمثلا : فلسفة حياتية ، نوع من الديانات ، دستور أخلاقى ، نظام اقتصادى ، عرض تاريخى ، مبدأ قانونى ، ثم يقال عنها فى وقت واحد : إنها حركة شعبية ، و تحليل علمى ، و تعبير عن الماضى ، و تصور للمستقبل ، نفير حرب ، وإعلان أمن ، وثورة عنيفة ، وانقلاب هادىء ، و صحيفة حب و إخلاص ، و تمثال تباغض و إثرة ، أمل للانسانية ، و عدو للحضارة ، حاملة لواء عهد جديد و نذير دمار مهيب » (٢) .

تتبدى من المقتطفات المسوق أعلاه مدى الاضطراب الفكرى فى تعريف الاشتراكية ، ومن هنالك فان كثيراً من أنصار الاشتراكية لا يجدون صعوبة ما فى تغيير موقفهم لدى الجدال والنقاش ، أو تقليب جنبهم لدى اعتراض أى مشكلة .

(١) Jaszi, Oscar, « Socialism » Encyclopaedia of the social scieces . The macmillan Co., New York 1950 . Vol. XIV, P. 210 .

(٢) Shadwell, A. Quarterly Review. London, July 1924. P. 2. Quoted by loucks William N. Comparative Economic Systems, HarPes & Bros. New york, 1964 P. 179 .

و بعد كامل الاعتراف بهذا الجانب للاشتراكية سنحاول أن نوجد صورة للمعنى فى هذه الغابة من أخلاط الأصوات ، و نحاول أن نحدد - متغاضين عن الأنواع التى إنما تطلق عليها الاشتراكية تكلفاً - الأفكار و التصورات التى الاشتراكية عبارة عنها .

بوسعنا أن نصرف النظر عن النزعات الاشتراكية التى يبحث عنها فى الماضى البعيد ، لأنها جميعاً جانبية جداً ، و ناقصة ومبهمة ويوطوبية (خيالية) (Utopian) و هى وليدة حالة خاصة فى وقتها و تأتى كمحاولة للقضاء على عدم اتزان ما ، أما كفلسفة جامعة وحركة اجتماعية فالاشتراكية ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وموضع عنايتنا أصلا هو هذا العهد الجديد للاشتراكية .

★ إرتقاء الاشتراكية :

ولدت الاشتراكية من بطن الحضارة الغربية وفى حضنها نشأت و ترعرعت ، و لا بد - من أجل هذه النظرية و هذه الحركة - من وضع خلفياتها الحضارية فى الاعتبار .

قد كانت بداية الحياة الجديدة للحضارة الغربية من التيار الفكرى والنفسى الذى يعرف بالنهضة أو الانتفاضة الجديدة (Renaissance) والذى كان عبارة عن الثورة ضد القهر و التشدد الدينى فى القرون الوسطى ، و ظهرت أولا فى المجال الفكرى الليبرالية (Liberalism) التى كانت ظاهرتها الأولى إحياء الأدب القديم ، وكانت هذه الحركة فى الواقع رمزاً للاتصال الفكرى مقابل العهد الدينى فى أوروبا ، بعالم ما قبله ، فكان التراجع إلى الأدب الاغريقى و الرومى الوثنى العريق (Pagan litrature) و التجرد فى جميع مجالات الفكر و الفن من القيم التى كانت من معطيات الدين ، بل اتخذ موقف الحياد عنها و الثورة ضدها ثورة عنيفة عارمة ، ثم برزت هذه

الليبرالية فى مجال الفلسفة و ادعت قطع رحلة الحياة على غنى عن التعاليم الالهامية ، وكانت حركة « العقلانية » (Retionolism) و حركة « الانسانية » (Humanism) حاملتى لواء هذه النزعة ، ثم تعدى ذلك إلى الأخلاق و الاجتماع و ظهرت نجاه الأخلاق التقليدية كيفية من تحرر و انطلاق و شذوذ ، ثم ظهرت هذه التحررية ذاتها فى نطاق الدين بالذات مما ولد حركة الاصلاح الدينى (Reformation) و ما ظهر من الاتجاه بالمجموع كان موقفه اتخاذ مصالح هذه الدنيا أساساً بدل اتخاذ الآخرة ، و قد عاد مدار القيم الجديدة هو تحصيل الدنيا ، و حصول المكسب المادى ، والتمتع باللذات . و المادية ، و كان المجال الأخير لبلورتها هو السياسة ، و تجلت فيه فى صورة « الفردية » (Individualism) و كانت صورة ضد الملوكية و الحكومة المستبدة ، و شنت المعركة من أجل حقوق الفرد ، و أخيراً فقام بناء الجمهورية اللادينية على أساس حاكمية الفرد ، وكانت شعبة من السياسة بالذات الامارة الدولية الشاملة باسم الدين ، فقامت الحركة ضدها هى الأخرى ، وحل محل الدولية و العالمية تصور القومية الجغرافى المحدود ، و بالتالى تجلى هذا التيار الجديد فى دائرة الاقتصاد هو الآخر ، و نشأت على أكتاف الثورة الصناعية ، الرأسمالية الجديدة ، التى أعطت الفرد الحرية المطلقة فى المجهودات الاقتصادية و اعتبر رأس المال قوة حاكمة أصلا ، و كان كسب المنفعة الشخصية قوة موجهة للاقتصاد ، و حدد نطاق مدخل الحكومة أكثر ما يكون ، مما ولد الفردية الاقتصادية العنيفة - Economic) (indivldualism - و استخدمت القوى العلمية و التكنولوجية (Technological) كانة فى تصعيد الحضارة الفردية ، و بينما عملت حركة الليبرالية هذه على القضاء على كثير من المفاسد الناشئة عن الاستبداد الدينى والسياسى ، و ولدت قوى اختراعية جديدة ، إذا بها قد أوجدت قضايا و تعقيدات متنوعة ، وبدأ الانسان الجديد يسلك

طريق دمار من الانطلاق العائلى ، متخطياً حدود الأخلاق و الدين ، و الأعراف ، و بدأ عهد جديد أسوأ للظلم و الاستغلال ، و تجلت هذه المفسدة على أشد مايكون فى مجال الاقتصاد ، وما ظهر ضدها من ردود الفعل ، حلت فيه الجماعية محل الفردية ، وقد أبقى على جميع الأسس للحضارة الغربية على ما هى عليه ، ولكن طفقت تقترح تدابير من أجل إلزام الفرد بالمصالح الاجتماعية ، و ظهر تصور إعارة المجتمع أهمية مركزية بدل الفرد ، و كان تبلوره على شكله النهائى فى حركة الاشتراكية .

نبعت الاشتراكية من أساس الحضارة الغربية : العقلانية واللادينية ، والمادية ، و اتجهت إلى العمل على تصحيح و إكمال بعض جوانب الافراط و التفريط فيها - القومية ، و الفردية ، و الرأسمالية - عن طريق الاجتماعية ، و الطينة التى اختمر منها مجيئها هى طينة الحضارة الغربية ، غير أنها تتم بعض جوانبها ، و تنفى بعض جوانبها و تحد منها ، تلك هى الخلفية النفيسة و الحضارية للاشتراكية (١) .

(١) يقول أحد الكتاب الأمريكان المعروف « رسل دبليو ديوينبورت » : إن الصلة بين الحضارة الغربية الصناعية وبين المدنية الاشتراكية هى الصلة بين الأم و بنتها ، ففى عروقهما تجرى دم واحد ، و أساسهما واحد .

« و الأمور التى تضع الفرق بين أمريكا و روسيا ، لا تترك العالم الحر فى حيرة وذعر مثل الأمور التى توحد بينهما ، والشئ المشترك بين هاتين « الحضارتين التقنيتين » هو فلسفتهما التفاؤلية ، التى هى كلية جريئة فى شأن إحداهما ، و نسبية مترددة فى صدد أخراهما ، و لكن توجد على كل حال تفاؤلية ترى الانسان مولود الأرض ، وسعادته تتوقف على حصول الأغراض الاجتماعية التى كانت وسيلة الحصول عليها هى كثرة الانتاجات الصناعية و التوفر الاقتصادى و التعاون الفكرى ، صحيح أن★

و تطلق كلمة الاشتراكية فى الأدب الحديث على ثلاثة أشياء مختلفة :

(ألف) نظام الفكر أو الفلسفة الاجتماعية التى ظهرت ضد الفردية والرأسمالية .

(ب) الحركة الاجتماعية العملية التى تبلورت من أجل إلغاء النظام الرأسمالى ، و إقامة النظام الاشتراكى .

(ج) نظام الحكم الذى قام فى الدول التى نجحت فيها الحركة الاشتراكية فى إحداث ثورتها المنشودة .

و يوجد بين هذه الثلاثة اتحاد جوهرى ، إلا أنه لا بد - من أجل التحليل و المقارنة - من التفريق بين النظرية والحركة و النظام ، و سيكون النظام والنظرية هما نصب أعيننا فى هذه الدراسة . و سنتعرض لكيفية الحركة وما ولدته من قضايا و مشكلات ، و لكن استطراداً ، لا أصلا .

كان قد بدأ النداء يرتفع منذ المنتصف الأخير للقرن الثامن عشر ، ضد الرأسمالية و اللاالاتزانية التى تنطوى عليها ، و الظلم و الاستغلال الناتجين منها ، و معاملتها السيئة مع الشعب عامة و الطبقة العاملة خاصة ، و تصاعد الشعور فى مستهل القرن التاسع عشر بأنه لا بد - من أجل إصلاح الحال - من إحداث

★ التفاؤلية الكليانية والتفاؤلية التحررية قد ولدتا نوعين من الانسان : الانسان الجدلى والانسان الصناعى ، غير أن الخجل والحيرة اللذين تواجههما حورية الحرية ، هما أن الانسان الصناعى رغم اختلافه إلى حد عن الانسان الجدلى ، لا يختلف عنه كثيراً على طريق دراماتيكى ، الحقيقة أن الانسان الجدلى هو ذرية الانسان الصناعى ، كما يثبت من تاريخ الماركسية »

Russel W. Devenport, The dignity of man, Harper and Bros, New york, 1955, PP. 238 _ 39.

تغييرات جذرية فى الحياة الاقتصادية ، و بما أن الرأسمالية كانت تقوم على أساس الملكية الشخصية الجامحة و التجارة الحرة ، فضربوا على هذا الأساس ، و طرحوا تصور أنه إذا أممت وسائط الانتاج أو جعلت الملكية الجماعية فسيعود الأفراد جميعاً سواءاً ، و لا يعود هناك ما يشكل سبباً فى الظلم الاقتصادى ، و ينشأ عن ذلك مجتمع يكون أصح و أصلح ، و كانوا يعتقدون أن هذا التغيير يمكن إحداثه عن طريق تمهيد الرأى العام و نتيجة الممارسات السياسية العامة ، ويمكن استخدام طبقة الحكام وأصحاب السلطة والنفوذ أنفسهم وسيلة لهذا الغرض ، وكان « سنات سائيمن فيورهر » و « روبرت أوون » حاملى لواء هذا الاتجاه ، وظلا منصرفين إلى التبشيرية ، وبما أنهما كانا يعملان على فردية الرأسمالية ، ويريدان أن يجعل مصلحة المجتمع دون الفرد أساساً ، فسميت هذه الفكرة الجديدة بالاشتراكية .

و طلع فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر (٥٠ - ١٨٢٦) على الأفق الاشتراكى « ماركس » و ظل هو و أفكاره تسود الجو على مدى الخمسين عاماً القابلة .. الأمر الذى كان يعرضه من سبق « ماركس » على أسس أخلاقية وإنسانية ، عاد « ماركس » يعرضه فى الظاهر كعلم ، و منذئذ حتى يوم الناس هذا لا تزال كل مدرسة من مدارس الفكر الاشتراكية - تقريباً - تتسم بطابع أفكار « ماركس » و زميله فى التأليف « فرادرك اينجلز » .. قد كان الفكر الاشتراكى موجوداً من قبل على صورة أمل ، و أمنية ، و اقتراح ، و لكنه لم يأخذ حتى الآن صورة نظرية شاملة و نظام بديل ، و مأثرة « ماركس » و « اينجلز » فى الواقع أنهما حييا

هذه الصفة (١) ، حتى إن فروع الاشتراكية التى أبدت رضاها بالاصلاحات الجانبية ،

(١) و نشير فيما يلى إلى أهم تأليف « ماركس » و « اينجلز »

١- « المنشور الشيوعى الرسمى » (Gommunist Manifesto) الذى ★

★ صدر فى فبراير عام ١٨٤٨م ، واستهدف أصلا النظام الرأسمالى الذى أدعى فى شأنه بكل قوة أنه مشرف على الانهيار ، وتقوم هذه على تعبير تاريخى خاص — التعبير الاقتصادى — و هذا المنشور قد سما بموضوع النقاش عن مستوى الأخلاقيات إلى صعيد التاريخ و الصوصيولوجيا ، و اعتبر موت الرأسمالية و نشوء الاشتراكية شيئاً يقتضيه التاريخ ، و صارت القضية قضية المجتمع كله ، و فوض تقرير مصيره إلى الصراع الطبقى ، (راجع ماركس واينجلز : المقالات المختارة ، موسكو ١٩٤٦م ، ص ٩٧ - ١٤٢).

٢- « نقد الاقتصاد السياسى » (Critique of Political Economy) جاء وضع هذا التأليف فى إثبات الدعوى التى احتواها كتاب « المنشور الشيوعى » غير أن الكتاب لم يتم ، و إنما تم تحرير البابين اللذين صدرا بالعنوان المذكور أعلاه ، و مقدمة الكتاب من أهم الكتابات فى الأدب الاشتراكى . جاء فيها تنسيق نظرية مادية التاريخ تحت ١٥ نقطة ، كما جاء فى « نقد الاقتصاد السياسى » التعرض لبيان نظرية القدر الفائض فى صورته البدائية ، (ليراجع كارل ماركس و اينجلز : المقالات المختارة ، موسكو ، ج ١ ص ٢٩٩ - ٣١٣).

٣- « رأس المال » (Capital) قد أخفق كتاب « نقد الاقتصاد السياسى » فى إثبات تلك الدعوى ، و بالتالى كان غير مؤثر و غير منتج وعاد ماركس لهذا العمل فى ١٨٦٢م من جديد ، و بدأ يحرر نقده الأصلى مؤسساً على هينك البابين والمعلومات الحاصلة عن المتحف البريطانى ، وظل يقتنى منذ ١٨٥٠م إلى ١٨٦٢م المواد فحسب ، و استطاع أن يؤلف المجلد ★

★ الأول من الكتاب بفضل جهده ليل نهـار فى الفترة ما بين ١٨٦٢ م و ١٨٦٧م ، وصدر المجلدان الثانى والثالث فيما بعد موت ماركس ، حيث صدر المجلد الثانى فى ١٨٨٥م و المجلد الثالث فى ١٨٩٤م ، و ألف المجلد الأخير بناء على مذكرات ماركس ومسوداته ، وليست الاشتراكية موضوع هذا الكتاب و إنما هو الرأسمالية ، و احتوى هذا الكتاب وحده فلسفة ماركس التاريخية و الاقتصادية ، و الكتاب ذو أسلوب قصصى واقعى بالاضافة إلى الأسلوب التحليلى ، ويتضمن عرض ارتقاء الرأسمالية وقوانينها التاريخية فى المستقبل ، و قد جاءت الاشارة فى هذا الصدد إلى أن النظام الحياتى فى عهد يكون فى الواقع وليد وسائل إنتاج ذلك العهد و العلاقات الانتاجية المبنية عليها ، فلو شئنا أن نقضى على الحضارة الرأسمالية لكانت وسيلة ذلك تحويل وسائل الانتاج من الملكية الفردية إلى الملكية الجماعية ، والعلاقات الانتاجية ، والمؤسسات الاجتماعية العاملة ، فى المرحلة الرأسمالية المعاصرة ، لا تتفق فى شئ مع القدرات الانتاجية الجديدة ، فقوة الأوضاع هذه لا ترضى بدون أن تقضى على تلك العلاقات و المؤسسات ، و تحل محل الاشتراكية التى تنشأ بناءاً على القانون المجتمعى الطبيعى ، و موضوع ماركس أصلا هو ما تنطوى عليه الرأسمالية من التناقضات والظلم والاستغلال (Exploitation) والمغايرة (Alienation) ، وله فى ذلك مباحث قيمة جداً.

٤- فيما قبل تأليف « رأس المال » كان قد حرر ماركس مقالا وجيزاً باسم « فرضية فيور باخ » (These of Feuerbach) حول المفكر الألمانى « لدوك فيور باخ » وجه فيه انتقادات فلسفية إلى الدين ، (ليراجع★

★ « المقالات المختارة » ج ١ ص ٣٥٢ - ٥٥) و كذلك ألف كتاباً باسم « إفلاس الفلسفة » (Poverty of Philosophy) وذلك فى ١٨٣٧م ، جاء فيه انتقاد شديد للاشتراكية الخيالية ، وموضوعه الرد على المفكر الفرنسى « برودهون » (راجع Poverty of Philosophy ط : موسكو) وهناك كتابات عديدة بقلم ماركس على الثورة و طريق الثورة ، جاء فيها تعليق على ثورة فرنسا الفاشلة عام ١٨٤٨م (Civil War in France) و انتقاد لـ « كوميون باريس » المنعقد ١٨٧٧م ،

٥- « نقد للبرنامج الغوطى » (Critique of the Gotha Progromme) وهو من آخر كتابات ماركس ، تناول فيه بالنقد برنامج الحزب الديموقراطى الاجتماعى فى ألمانيا - المعروف بالبرنامج الغوطى لأنه جاءت الموافقة عليه فى المؤتمر الذى عقد فى مكان « غوطا » (Gotha) (انظر « المقالات المختارة » ج ١ ص ١٣ - ٤٨) و قد حدد ماركس فى هذا المقال لأول مرة ، مرحلة الاشتراكية : الأولى و الآخرة ، و جاء فيه بعض أفكار ماركس فى صورة واضحة فى شأن المجتمع الاشتراكى ، على حين كانت كتاباته الأخرى متسمة بطابع نقدى و سلبى .

ومن مؤلفات « اينجلز » الأولى : « وضع الطبقة العاملة فى انجلترا » (Condition of working class in England) الذى صدر عام ١٨٤٥م ثم ساهم فى تسويد « المنشور الاشتراكى » ، و إن كان يقول إنه تأليف ماركس ، و ليس له أى مساهمة فيه إلا بالاسم ، (انظر ديباجة الطبعة الثالثة) وقد حرر « اينجلز » مقالات و كتيبات غاية فى القيمة والأهمية★

ليست خالية من آثار تصور هذا النظام الكلى (١) . و إن كانت تبرز جانباً آخر نظراً لمصالحها و ضروراتها ، وعادت الاشتراكية اليوم تحمل معنى مجتمع وحضارة ، و تنادى بالتغيير الكلى حسب وجهة نظرها ، و تلك هى النقطة الأساسية التى نادى بها الطبقة العليا من الكتاب الاشتراكيين ، واعترف بها جميع النقاد الفضلاء البارزين القائمين بالدراسة الاكاديمية و العلمية حول الاشتراكية (٢) .

★ تناول جوانب شتى للاشتراكية بالشرح و الايضاح ، لكن « اينجلز قد أودع فلسفة المادية الجدلية بكاملها فى كتاب واحد بصورة جامعة للغاية ، وهو (Anti - Duhring) و لهذا الكتاب دور بارز فى تبليغ الاشتراكية الماركسية و ترويجها ، و قد بحث اينجلز على الأسئلة الجوهرية الناشئة فى صدد الأمور المتعلقة بالعلم ، فى (Dialectics of Nature) و هو باعتبار تكملة لـ « رديو هرنك » (ط : موسكو ١٩٥٤م) واستعراض خاطف لهذا الأدب يدل على أن ماركس واينجلز قد دون الفكر بكامله فى صورة نظـــام .

(١) احتفالا بالعيد الذهبى المئوى للمنشور الاشتراكى فى ١٩٤٨م قد أصدر حزب العمال فى بريطانيا ، طبعة جديدة له مشفوعاً بتعريف جديد بقلم أحد مفكريها المعروفين الاشتراكيين « هيرالد جسے لاسكى » و جاءت فى الاسم الذى أطلق عليه دلالة دقيقة على تفاعلهما : « المنشور الشيوعى ـ المعلم الاشتراكى » (The Communist Manifesto - Socialist Landmook)

(٢) نحن نعرف أن هناك عديداً من رجالات القلم ، يطرحون أنه يمكن إفراز الفكر الاقتصادى الأساسى عند الاشتراكية من فلسفتها المتعلقة بما وراء ★

★ الطبيعة (الميتافيزيقا) إذاً فليسا بمتلازمين ، و إنما نادى بذلك أولئك الذين كانوا يحـاولون أن يتخذوا من الاشتراكية مزيجـاً ، مثلا : دعاة الاشتراكية المسيحية ، إلا أن ذلك إنما أمكن هنالك لأن المسيحية بدورها كانت تقول بالأزدواجية ، و لم يكن لها نظام اجتماعى اقتصادى ذاتى ، ثم إن الواقع أن هذا التطعيم لم ينجح ، ولفظت المسيحية شيئاً فشيئاً أنفاسها الأخيرة و لم تعد فى هذا المزيج إلا الاشتراكية ، و قد قال « سدنى هك » وآخر من رجالات القلم فى العهد الجديد ، إن أصحاب هذا الاتجاه كأقلية لا تسترعى انتباهاً ، و لا ترضى بما يقولون الأغلبية الساحقة بل الاتجاه السائد (Mainstream) عند المفكرين الاشتراكيين ، كما يعجز عن تأييده كتابات مؤسسى الاشتراكية و نظامهم الفكرى بالمجموع .

المرأة فى التشريع الاسلامى

الدكتور توفيق محمد شاهين

★ هل هناك فروق حتمية :

يرى الأستاذ العقاد رحمه الله فى كتابه : مطالعات فى الكتب و الحياة: أن المرأة تختلف عن الرجل فى الكثير من الظواهر و البواطن فى مادة الدم ، و نبضات القلب ، و عوارض التنفس ، وفى سحنة الوجه و حجم الدماغ ، وهندام الجسم ، و نغم الصوت و لا يزعم أن المرأة هى الرجل و الرجل هو المرأة إلا من ينكر الحس ، و يناقض البداهة ، فالبداهة و الخبرة ترسمان مجالا للمرأة .. هو القيام على النسل ، و ما هو بالعمل الهين و لا بالحقير ، و ترسمان للرجل مجالا هو عراك الحياة وشئون السلطان ، وما هو بالعمل الكبير عليه ، ولا هو بالنصيب الذى يحسد من أجله »

و يرى العالم الروسى (نيميلاف) فى كتابه (المأساة الحيوية للمرأة) أنه لا مساواة بينها و بين الرجل ، كما أثبتت ذلك تجارب العلوم الطبيعية ، ولم تكلفهما الفطرة بأعباء سواء »

و يقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فى كتابه (المرأة كما أرادها الله) إنها (المرأة) تمثل النوع الثانى للجنس الانسانى ، فالجنس لفظ عام ، و ينقسم هذا اللفظ العام إلى مدلولين : الرجل و المرأة ، وإذن فالرجل نوع من الجنس ، والمرأة

نوع من الجنس ، ومادام الجنس يشملهما فلابد من وجود خصائص مشتركة يشترك فيها الرجل و المرأة شركة لا تمييز فيها ، و إذا انقسم الجنس إلى نوعين : أى إلى رجل و امرأة ، فلا بد أن توجد سمات ، أو يوجد مجال للرجل ، و أن يوجد مجال للمرأة ، و لو كان المجال واحداً ، لاكتفى الحق - سبحانه - بأن يجعل الجنس واحداً ، و لكنه سبحانه حين قسم الجنس إلى نوعين ، أشار بذلك إلى أن الجنس يجمع بينهما بخصائصه و أوضافه و متطلباته ، و أن النوع يفرق بينهما فى الخصائص و المرادات و المتطلباب ، فمن يريد أن يجعل الرجل و المرأة مجرد أفراد للجنس بدون انقسام إلى نوع ، فقد أحال فيما خلق الله ،

و يرى أن المرأة و الرجل متكاملان ، و لكن الملكات مختلفة ، و لا مجال للمقارنة بين أمرين ضروريين ، على حد قول الشاعر :

هل السمع بعد العين يكفى مكانها أم العين بعد السمع تهدى كما يهدى ؟

و نحن نحتاج الليل و النهار ، لأنهما مكملان لبعضهما ، لأن للضوء مهمة فى تكوين الانسان و النبات و الحيوان ، و لأن الليل سكن و تخرج فيه النباتات ثانى أكسيد الكربون ، فالليل والنهار لازمان و متكاملان ولا غنى عن أحدهما ، وعلى هذا قياس الذكر و الأنثى و مهماتهما فى الحياة ، و من هنا نفهم لماذا لعن الرسول المتشبهين بالرجال من النساء و العكس .. و سيظل هدى الاسلام متفوقاً و لا شك لأنه هبة السماء ، و صبغة الخالق سبحانه .

★ المسئولية ضرورية و شرف :

الاسلام دين يلبى مطالب الجسوم ، و أشواق الروح ، فى وحدة متناسقة ، و سخر للانسان كل ما فى الكون مما خلق الله و أعطاه الطاقات البناءة و المبدعة ،

ثم فضله على كثير مما خلق الله ، فتبع كل ذلك أن يحمل كافة المسئوليات التى أهل لحملها ، كخليفة لله فى الأرض و ظل له سبحانه ، فكلنا راع ، و كلنا مسئول عن رعيتـــه .

و المسئولية فى الأسرة متنوعة و متكاملة و تضامنية ، يحمل كل فرد فيها ما يطيق حمله ، وما هو أهل له كشريعة واجبة ، و لا يعفى منها إنسان كامل الأهلية ، إذ « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » و « كل ميسر لما خلق له »

فالانفـــاق و الكسب مسئولية الرجل ، و تدبير البيت مسئوليـة المرأة ، و للضرورات أحكامها التى تقدر بقدرها ، و لكل قاعدة شواذ .

وحسن رعاية البنين و العناية بتربيتهم واجب الوالدين ، بضميمة واجب الدولة والأغنياء وذوى الجاه ، حتى لا يؤرقنا نعيق نادب بتحديد نسل ، أو إباحة إجهاض ، أو التبرم بوجود فلذات الأكباد ، و أمل المستقبل .

وحين يشب البنون والحفدة عن الطوق تظل مسئوليتنا الأدبية نحوهم بالمشورة و النصح و التسديد و الدعاء ، وتبدأ مسئوليتهم المادية و المعنوية نحو الوالدين جزاء وفاقاً .. يدفع إلى هذا و ذاك دافع قوى قوامه تبادل الاكرام و الفوز بالجنة التى جعلها الرسول تحت أقدام الأمهات ، و فى وصيته « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم »

و يمتد نطاق المسئولية فى الاسلام طولا و عمقاً و عرضاً ، لتشمل بالرعاية و العناية و الرحمة كل ما أحدثه الزواج من صلات نسبية ، و عصبية ، و رحمية ، تبقى ببقاء الأجل ، و هنا تترابط الأسرة بروابط متينة ، تجعل بناء المجتمع متماسكاً قوياً شامخـــاً .

وتأتى صلة الرحم لتزيد من قوة أواصر المودة و التعاون و تشمل حتى صلة

الجار الملاصق والجنب ، وتتسع دوائرها حتى تعم الانسانية ، التى يناديها الاسلام .

أما صنيع غير المسلمين فى ترك حبل المسئولية بكل أنواعها عند سن معينة ، أو التخلى عنها متى استغنى أولادهم .. فهى لا يعرفه إنسان الاسلام ، لأنه صنيع العجماوات ، بينما ظل الله فى الأرض له خلافة مسئولة ، تدفع إلى الايثار لا الأثرة ، و تمتدح مألوف الأشعريين حين يتواسون بمـــا يملكون فى النائبات ، إذا عزت درجة الايثار ، و لله در أقوام أقاموا صرح هذا الدين بما أعطوا ، لأنهم يؤثرون على أنفسهم .

★ منزلة كريمـــة :

الاسلام هو الذى أعطى المرأة حقها الطبيعى فى الحياة ، وأحقيتها فى التصرف ، فلها أن تملك ، و تبيع و لها أن تهب ، ولها أن ترهن .. و هى حقوق ما حصلت عليها غير مسلمة فى الحديث إلا بشق الأنفس ، و بعضهن لم تحصل عليها أو على بعضها حتى الآن .

و يتسامى الاسلام فى احترام المرأة إلى الذروة ، خذوا مثلا :—

رسول الله يأمر المسلمين بالتحلل من الاحرام بعد إبرام معاهدة الحديبية ، على أن يعتمروا فى العام القابل ، و لكن المسلمين — فى حزن — يحاورونه عليه السلام كيف يقبلون الدنية فى دينهم ، و يقول الرسول : « أنا رسول الله » و يقولون : (لا بد أن ندخل مكة) فيذهب الرسول إلى خبائه مهموماً ، و يقول لزوجته — أم سلمة — رضى الله عنها : « يا أم سلمة هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا » .. فتشير بالرأى السليم و تقول : يا رسول الله ، جاءوا على أمل أن يدخلوا المسجد الحرام مقصرين ، ثم منعوا — وهم على بعد بسيط منه — فهم مضطرون ، فأعذرهم يا رسول الله ، و لكن أخرج فأعمل بمـا أمرك الله ، فاذا ما رأوك قد فعلت ،

علموا أن الأمر عزيمة و جد لا هزل فيه ، و سيصنعون كما تصنع فاستمع الرسول - الذى أرسل إلى الناس بالدين المرتضى و ليكمل صلتهم بالله - لمشورة امرأته ، فهدى و نحر بدون كلام ، ففعل المسلمون ما فعله حبيب الله ورسوله ، بعد مشورة أم سلمة .

و للمرأة الرأى فى زواجها كما أسلفنا ، و لها أن ترفض ما يقبله وليها إذا لم يوافقها الاختيار ، فلها أمرها و إذنها مطلوب ، وللنساء مجالات كثيرة فى دنيا العمل تناسبهن : كالطب النسائى و الأطفال و التمريض و التدريس ، وكل الخدمات الانسانية التى تحتاج إلى رقة و مهارة .

و تحس بها فى الحج شخصاً يؤدى ما تؤدى لله رب العالمين ، وقام النبى ﷺ بغزواته و معه نساء مجاهدات فى مجالهن و منهن من حملت السلاح و دافعت دفاع الأبطال ، و حين أبلت أمينة الغفارية بلاء حسناً فى غزوة خيبر .. قلدها الرسول قلادة اعتزت بلبسها طول حياتها ، ثم أوصت بأن تدفن معها بعد موتها .

فمنزلة المرأة فى الاسلام سامية ، و لكن الأفكار المسمومة تحاول تشويه الاسلام فى نظرها حتى تتحول عنه و بتحولها يفسد المجتمع ، و تسقط بالتالى المناعة الدينية .. فيجب على المرأة المسلمة - التى هى قوام الأسرة و نصف المجتمع - أن تكون واعية لما يراد بها ، ويحاك حولها ، فقد أعطاها الانسان ما أعلى من شأنها : فهى فى الناحية الروحية و الاجتماعية و الرجل سواء فى الاعتبار البشرى : « بعضكم من بعض » .

ولها بالاسلام من الحقوق ما لم تنله أختها فى غيره ، ولها حق التعليم والتعلم لرقى الحياة و الازدهار .

و كان التعدد لمصلحتها قبل مصلحة الرجل ، إذا ما زاد عدد النساء ، و إلا

فأين يذهب هذا الفائض ؟

و كان الطلاق منفذاً لها من عشرة ملتها ، و لا تريد استئنافها على بغض و تنغيص و إزعاج .

« وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعة » بدلا من أن تحيا الأسرة فى جو نكد متعاند قوامه البغض والكراهية ، واللبنات الفاسدة تعجل بانهيار الأسرة وتقويض المجتمع .

والمرأة فى الاسلام إما بنت أثيرة حبيبة ، أو أم موقرة مبجلة يترضاها جميع من حولها ، و لذلك ليس فى الاسلام (عيد الأم) ، لأن كل أيامها أعياد .

أو زوجة إنسانة مكرمة و مختارة ، أو أخت عزيزة كريمة .

وإثارة الشبهات حول المرأة - من أعدائها المسمون أنصارها - لزحزحتها عن عرشها و زعزعة كرامتها ، و قوامة الرجل عليها لا بد منها لاستقامة أمر الأسرة و الحياة السعيدة .

و هى فى حقيقة التكوين الانسانى من جنس الرجل و من نفسه .. جعل لكم من أنفسكم أزواجاً « وإنما الرجال شقائق النساء » و (يفرك مؤمن مؤمنة : إن كره منها خلقاً رضى الآخر) ، كما قال رسول الله ﷺ .

و لها من الحقوق الاقتصادية ، و حرية التصرف فى مالها مثل ما للرجل ، و لها أن تعمل فيما يناسبها حين تضطرها ظروف العمل ، و كانت لا ترث قبل الاسلام ، فورثها الاسلام :-

يقول (جوستاف لوبون) : إن مبادىء الميراث فى الشريعة الاسلامية على جانب عظيم من العدالة والانصاف ، ومن مقابلتها مع القوانين الفرنسية و الانجليزية .. نجد أن الاسلام منح المرأة حقوقاً لا تجد مثلها فى قوانيننا .

و سيظل الهتاف السماوى : « وعاشروهن بالمعروف » هو الشعار للسلم .

وستظل وصية الرسول الآكرم ﷺ : (واستوصوا بالنساء خيراً) نوراً هادياً فى حياتنا .

★ **هموم متوهمـــة :**

و إذا كان الزواج فى الاسلام أغض للبصر ، و أحفظ للفرج ، و حفظاً للنسب ، و كرامة للزوجين ، و بقاء للنوع ، و تخليداً للذكر .. فان تعدد الزواج يقض مضاجع المرأة المتزوجة ، و يخيف التى لم يحن زواجها ، ويرضى العانس التى فاتها قطار الزواج ، و يقنع التى تقبل - لسبب من الأسباب - بعض الزواج ، أو خيرت بين أمرين أحلاهما مر .

على كل ، مسألة تعدد الأزواج - وبلا حدود - كانت معروفة قبل الاسلام ، لا أن الاسلام وحده شرعها ، و باركتها الشرائع و الأعراف السائدة ، و حين حاولت الكنائس منع التعدد سياسياً .. أبقت عليه فى شكل خليلات و أخدان و صديقات و أصدقاء .. بيد أن الاسلام هذب التعدد ، و جعله فى مقدور طبيعة البشر فى العدد ، و جعله رخصة عند الضرورة ، و شرط له العدل ، و أشار إلى أن العدل يعسر تحقيقه ، و يكلف الجهد و المشقة ، و عند مجرد الخوف من الظلم فواجب المسلم الاكتفاء بواحدة ، لئلا يغلب شر التعدد خير ما أبيح له ، و درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

و يرى (دينيه) فى كتابه : (أشعة خاصة بنور الاسلام) : أن تحريم التعدد أدى إلى ظهور عوانس و أبناء غير شرعيين .

و قامت النسوة يوماً بمظاهرة لنصرة حقوق المرأة ، و منها المطالبة بمنع تعدد الزوجات ، و قابلن الأستاذ العقاد رحمه الله وسألنه المشاركة فى التظاهرة .. فنصحهن بالكف عن التظاهر ، لأنها دليل ضدهن ، حيث تتزوج المرأة على المرأة ، فالثانية و الثالثة من الزوجات أحق بالملام و الاحتجاج .. لا الرجال .

وقد طالبت نساء ألمانيا ، بعد الحرب العالمية الثانية بتعدد الزوجات ، بعد فقد الكثير من رجالهن فى الحرب الضروس .

بينما يرى فضيلة الشيخ الشعراوى : أن المسألة يجب أن تتوجه إلى النساء اللائى قبلن زواج المتزوج ، ويؤخذ رأيهن وحدهن فى الموضوع : أيبقى تعدد الزوجات ؟ أم يقيد بقانون ؟ أو يلغى بقرار ؟

وهو واثق من نتائج الاقتراع بأنها ستكون فى صالح التعدد ، لأن من دخلت على الزوجة الأولى ما قبلت الأمر المرير - فى نظر البعض - إلا لما هو أمر منه ، و فى الأعذار المتعددة التى تبيح الزواج بأكثر من واحدة ما يمدح تشريع الاسلام كحل لزيادة النسبة العددية للنساء ، كما فى بعض البلاد و الأزمان ، أو علة ومرض ترى الزوجة الأولى أن من مصلحتهـا - على ما بها - فى عصمة رجل ، أشرف و أكرم و أحفظ لها من ضياع أو حرمان كلى ، أو العيش فى خواء ، و رعب الوحدة ، و تجرع الشقاء .. و يحمى من كل هذا حل الاسلام فى بعض زوج .

ويقول العقاد : خير للمرأة أن تشارك أخرى فى زوجها ، فتجد رياً لعاطفتها ، و تحقيقاً لأنوثتها ، وصوناً لكرامتها من ألا ترى رجلا قط ، أو تطلق من زوجها فتحيى محرومة من شرف الزوجية ، و نعمة الأمومة .

★ **و بعـــــد :**

فحين يوصى الاسلام ببنـاء الأسرة ، و يحوطهـا بالسيـاج الواقى من الداخل و الخارج ، وحين يوصى بالعفة و غض البصر ، والاحصان .. نجد كل ذلك إعلاء لغرائزنا ، و تساميا بعواطفنا ، و مراعاة لمشاعرنا و أحاسيسنا من أول الخطوات لتأمن العثار و البوار ، و نأمن التمزق النفسى ، حين يصطرع داخلنا ما نستحى من إعلانه بعد ممارسته ، أو ما نتحايل على إخفائه ليقيننا بأنه شين لا زين .

فقبل أن يلحق المرء إدراك و انفعال و نزوع ، و قبل أن يتبع كل ذلك تدنيس المجتمع و فساد السلالات وضياع الأنساب .. نجد الاسلام يحث على زواج حلال ، و غض بصر و إحصان ، و لباس وقار و جلال حتى لا يطمع الذى فى قلبه مرض ، ويستشرى الشك ، وتضيق مساحة التيقن ، ويجترىء ضعفاء الايمان .

و فى الثياب الاسلامية من الجلال و الجمال ما يضفى على الأنثى حياءها ، لتظل مصونة مكرمة .. ومهمة المجتمع الفاضل أن يحفظ عليها كرامتها حينئذ ، ويبدى سلوكاً رشيداً إذا ما اضطرتها ظروف الحياة للزوج إلى معتركها .

و يرى ظريف أن الزى الاسلامى لها ، بضميمة الحجاب ـ المتوارث من قبل الاسلام ـ تأمين جمالى للمرأة : فان سترت و احتجبت أمنت عند ذبول جمالها لسبب ما .. أن يزيغ بصر زوجها إلى ما تبدى من مفاتن بنات جنسها ممن يرتعن فى ميعة الصبا و الجمال .. و سبحان مقلب القلوب .. و فى التأمين الجمالى ما يأخذ بالحجز و يعصم من الزلل ، و يقنع بالمقدور .

و حين يقل الوازع الدينى ، و تحطم « العلمانية » سياج الخلق و الفضيلة ، لا نرى عاصماً فى مجال الأسرة و صيانتها سوى المبالغة فى الحيطة ، و أخذ الحذر ، وتجنب الاختلاط ، و وأد عوامل الفتنة فى مهدها ، و « ذلك أزكى لهم » و أطهر لقلوبهم من أرجاس الشهوات ، و حسبنا هنا تحذير الرسول - النبى الأمى - من الاختلاط ، حتى من أقرباء الزوج .. فى قوله : « إياكم و الدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أ رأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » أى يجب أن يخاف كما يخاف الموت .

و من الناس من يرى أن مملكة المرأة بيتها ، و أن أعداءها ـ المسمون أنصارها ـ يمكرون بها فى هذه الأيام ، لافساد فطرتها ، وتعطيل وظيفتها ، وتشتيت

أسرتها ، وبالتالى انحدار المجتمع الاسلامى كله إلى مكان سحيق من الانحلال والضلال .. ويرون أيضاً أن الاستعمار يتعاون مع الحركات الهدامة ، مثل الصهيونية والشيوعية و الاستشراق ، على إذكاء هذا الجانب ، باثارة الشبهات فى أذهان العامة والخاصة ، و فى دور العلم حول المرأة و مشاكلها : زواجاً ، و طلاقاً ، و حجاباً ، و تعدد زوجات .. وكلها قيود تقض مضاجعهم ، وتقيد حريات المرأة فى دنيا الواقع اليوم ، و من حقها ـ فى رأيهم ـ أن تندفع لتحقيق واقعها و عالمها و طموحاتها بلا حد و لا قيـــد .

ويرون أن هذه الدعاوى من أعدائها خطر عليها ، لأن مملكتها فى بيتها راعية لشئونه ، تنشر حنانها و أريجها فى أجوائه ، مصونة عن الأعين الخائنة ، و القلوب الخاوية ، وتبقى امرأة كما خلقها الله ، لها مجالها المختص والممتاز ، ومسارها المختار : فالحجاب دليل عفافها ، و صمام صيانتها ، وعدم اختلاطها منعاً للفتنة ، و صوناً عن العبث ، و بخاصة عند كثرة الفساق ، وعدم سفرها وحدها سداً لباب الفتنة والقيل و القال ، و التبذل و الضياع .

و يستشهدون برأى بعض المفكرين المعاصرين ، مثل : (برتراندراسل) فى أن ما يساعد على دعم الحياة الزوجية .. خلو الحياة الاجتماعية من النظم التى تسمح بالمصادقة و المخالطة بين المتزوجين من الرجال و النساء .. سواء فى العمل أو فى المناسبات والحفلات وما شابهها ، لأن ذلك سبب الشقاء و انهيار البيوت والطلاق .

لقد شقى إنسان الغرب والشرق لأنهم تركوا الحبل على الغارب ، وجعلوا من الحرية فوضى ، و من الانسانية حيوانية ، فاختلطت الأمور ، و ساء المصير ..

فهلا تمسكنا بحبل الله المتين ، وقرآنه الحكيم ، وهدى رسوله الكريم ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وترفرف عليهم سعادة غامرة ، حين يرضى عنهم الحكيم الخبير .

الدّعوة الإسلامية

الأدب النبوى

[هذا المقال كتبه سماحة العلامة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى منذ أكثر من نصف قرن فى عام ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م لأول عدد من مجلة « الضياء » الغراء ، التى صدرت من ندوة العلماء فى محرم ١٣٥١هـ ، ننشره فى مجلة « البعث » نظراً إلى ما يحتوى عليه من أدب رفيع وأسلوب قوى وفكر نير جميل] « التحرير »

ما ظنك ؟ ببشر ذل بالقرآن لسانه ، وامتزج القرآن بلحمه و دمه ، وجرى فيه مجرى الروح ، وأخذ بقلبه و استأثر بلبه ، بل أشرب فى قلبه القرآن ، و تمكن منه ما الله أعلم به ، فان لم يكن كلامه بعد ذلك من الوحى - فكما قال أخونا الشاعر مصطفى صادق الرافعى - قد جاء من سيله ، و إن لم يكن له منه دليل فقد كان هو من دليله ، قد عبد له الوحى طريق الكلام و ذلله :

كما كان بعد السيل مجراه مرتعا .

ما ظنك ؟ بمولود من بنى هاشم ولدته أم القرى ، نشأ فى بنى سعد بن بكر و عاش فى قريش ، أخواله بنو زهرة ، تزوج فى بنى أسد ، وهاجر إلى بنى عمرو ، ما ظنك ؟ ببشر يقول فيه ناعته « متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة و لا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام و يختمه بأشداقه . . . و يتكلم بجوامع الكلم ، فصلا لا فضول فيه ولا تقصير » اقرأ فصلا للجاحظ فى بيان أفضل الكلام « و القول ما قالت حذام » قال رحمه الله :

« أفضل الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره و معناه ظاهراً فى لفظه وكان الله قد ألبسه من ثياب الجلالة و غشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فاذا كان المعنى شريفاً و اللفظ بليغاً ، صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ،

منزها عن الاختلال مصوناً عن التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة . . . و متى فصلت الكلمة على هذه الشريطة و نفذت من قائلها على هذه الصفة ، كساها الله من التوفيق ، و منحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة ، ثم انظر إلى قول النبى صلى الله عليه و سلم :

١— « مثل ما بعثنى الله به من الهدى و العلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقيـــة قبلت الماء فأنبتت الكلاء و العشب الكثير ، و كانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا و سقوا و زرعوا وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماءآ و لا تنبت كلاء ، فذلك مثل من فقه فى دين الله و نفعه ما بعثنى به الله فعلم و علم و مثل من لم يرفع بذلك رأساً ، و لم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

٢— « الحلال بين و الحرام بين و بينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من النـاس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه و عرضه و من وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا و إن لكل ملك حمى ، ألا و إن حمى الله محارمه ، ألا و إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا و هى القلب » .

٣— إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض : قيل وما بركات الأرض قال زهرة الدنيا ، لا يأتى الخير إلا بالخير ، إن هذا المال خضرة حلوة ، و إن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم إلا أكلة الخضرة أكلت ، حتى إذا امتدت خاصرتاها ، استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت ، فأكلت ، و إن هذا المال حلوة من أخذه بحقه و وضعـــه فى

حقه فنعم العون هو ، و من أخذه بغير حقه كان الذى يأكل و لا يشبع ، لو أن لابن آدم مثل واد مالا لأحب أن له إليه مثله ، و لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، و يتوب الله على من تاب .

« سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، الحديث و فيه « و رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه و رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ فيه يمينه و شماله و بين يديه و وراءه ، و عمل فيه خيراً » .

« سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، ماذا أنزل من الخزائن ، من يوقظ صواحب الحجرات ، يا رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة » « قيل : يا رسول الله و ما الجسر ؟ قال دحض مزلة فيها خطاطيف و كلاليب و حسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعـــدان فيمر المؤمنون كطرف العين و كالبرق و كالريح و كالطير و كأجاويد الخيل و الركاب فناج مسلم و مخدوش مرسل ، و مكدوس فى نار جهنم ، انتهى .

و من جوامع كلمه ﷺ فى معنى الاحسان « أن تعبـــد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » و قوله « إنما الناس كالابل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة » « بعثت فى نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه هذه « إنما الأعمال بالنيات » « اليد العليا خير من اليد السفلى » « لا تجن يمينك على شمالك » المضعف أمير الركب » « إياكم و خضراء الدمن » « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » « الاثم ما حاك فى صدرك » « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » « الدين النصيحة » .

هل ترى الجاحظ يعنى غير كلام النبى ﷺ : حاش لله وأى كلام أحق بأن يلبسه الله من ثياب الجلالة و يغشيه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى

قائله و يكسوه من التوفيق و يمنحه من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمه به صدور الجبابرة من كلام نبيه ﷺ .

و هو مع إعجازه إذا سمعه الجاهل ربما ظن أنه يحسن مثله و هذا هو الكلام البليغ ، كما قال ابن المقفع ، والسهل الممتنع ، ثم أنشا الجاحظ يصف كلام النبى ﷺ و حسبك به وصافا و ناعتا و نكتفى به « هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة و نزه عن التكلف ، استعمل المبسوط فى موضع البسط و المقصور فى موضع القصر و هجرت الغريب الوحشى ورغب عن الهجين السوقى فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة و لم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة و شد بالتأييد و يسر بالتوفيق ، و هذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه و غشاه بالقبول و جمع له بين المهابة و الحلاوة ، و بين حسن الافهام و قلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته و قلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة و لا زلت له قدم و لا بارت له حجة ، و لم يقم له خصم و لا أفحمه خطيب بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير و لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم و لا يحتج إلا بالصدق و لا يطلب الفلج إلا بالحق و لا يستعين بالخلابة و لا يستعمل المواربة و لا يهمز و لا يلمز و لا يبطئ و لا يعجل ولا يسهب و لا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً و أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهبا و لا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً و لا أفصح عن معناه و لا أبين عن فحواه من كلام النبى ﷺ » انتهى .

و أصحابه ﷺ اقتبسوا من هذا النور - رضى الله عنهم - و معشر الأنبياء قوم لا يشقى بهم جليسهم وهم حملة هذا العلم وأحق عباد الله بالانتفاع به وأولى به من غيرهم - و الله أعلم حيث يجعل الفضل - فان كان غنيا - و لا جرم - فقد

وجد تربة كريمة - و أصاب أرضاً نقية كما قال عليه الصلاة و السلام : قبلت الماء فأنبتت الكلاء و العشب الكثير .

و ما هو إلا أنهم جلسوا إليه و غشوه ، و خالطوه - و عاشروه وصحبوه و أحبوه و تضلعوا من كلامه و حفظوا أحكام منطقه ، و اقتفوا آثاره فى كل شئ (١) .

و هل نشأ أمير المؤمنين على بن أبى طالب و أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها إلا فى حجره - ﷺ - و كنا نرجو أن نأتى بأمثلة من كلامهم فيتبين الصبح لذى عينين ، و لكن قد طال بنا الكلام و من شاء فليراجع حديث أبى هريرة قال : كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا فأبطا علينا و خشينا أن يقطع دوننا و فزعنا و قمنا و كنت أول من فزع .. الحديث إلخ .

و حديث الاستسقاء فى الخطبة يوم الجمعة رواه البخارى و غيره عن أنس و ابن مسعود و أبى سعيد ، و حديث أبى قتادة قال خاطبنا رسول الله - ﷺ - فقال إنكم تسيرون عشيكم و ليلتكم و تأتون الماء إن شاء الله أخرجه مسلم وغيره .

و حديث الافك و حديث كعب بن مالك فى قصة تبوك .

و حمال هذا العلم من بعدهم منهم من قعد به الفقه و أمر الفتوى و علم

(١) و والله لكلامهم أحرى و أحق بأن يدرس و يحفظ و يذاكر و يحتج به من غيره و لكن أقواماً أخطأهم كتاب الله و كلام نبيه و أصحابه أن يتعلموا منه كلام العرب و سنتهم فيه و مذاهبهم و اشتغلوا بما لا يكون فى شئ من كلام العرب ولا نرى عليه آثاره من أدب و كانوا ظالمين ، و هل الظلم إلا انتقاص الحق و وضع الشئ فى غير موضعه ، و الناس أعداء ما جهلوا ، انتهى .

البعث الاسلامى

الرجال وغلبه كامام أهل السنة أحمد بن حنبل والامام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى و صاحبه الامام مسلم بن حجاج القشيرى إلا أن فى الجامع الصحيح للبخارى من أدب ولطف كلام ما قد يستوقف نظر الناظر ، و فى المحدثين أدباء كعلامة التابعين الامام الشعبى والامام الليث بن سعد وشيخ الامام أبى عبد الرحمن عبد الله بن مبارك الحنظلى و الامام عثمان سعيد الدارمى و الامام المتبوع والشاعر المطبوع محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله و غيرهم - فهؤلآء أدباء المحدثين .

ثم جاء بعدهم أقوام درسوا الحديث و درسوا ولكن ما استطعموا كلام النبى ﷺ و ما ذاقوا حلاوته فلم يوفقوا لفقه كلام النبى العربى الهاشمى الا كما وفقوا لفهم كلام الفقهاء الذين ليس لهم حظ كثير فى لغة القرآن وأدبها فتراهم لا يدهشهم أدبه الجليل ، و إن قيل لهم فى ذلك قالوا ما لنا و لهذا أو ليس هذا من شأننا معشر الفقهاء و إنما لنا إقامة الدليل ، و الترجيح ، و التحقيق ، فهم كما قال الشيخ أحمد بن فارس ، يسرون بما ساء به اللبيب .

والعجب لقوم يذهبون بأنفسهم و يرونها من الأدب ما يرون ، ترى الواحد منهم يحفظ آلافاً من أبيات رؤبة بن العجاج والراجز و ذى الرمة و أمثالهم ، إن شاعراً من الشعراء المحدثين كان يصلى الصلوات فى آخر عمره بالتيمم و يدل عليه قوله كذا وشعره كذا ، و إن امرء القيس لما ذهب إلى الروم ليستنجد قيصر ذهب بطريق كذا او يبسط القول فى حب ابن أبى ربيعة و شعره لو استمليته جملة من جوامع كلمه ﷺ لسقط فى يديه و تحير .

فنعوذ بالله من سوء الاختيار :

و الحق أن حديث رسول الله ﷺ كدينه - كما قال نابغة كتاب الشرق - ضاع بين جاحد و جامد .

هذا سطور علقتها على تشتت بال و تزاحم أشغال و عسى الله أن يوفقنا لإفراد كتاب فى هذا الباب ، و على الله قصد السبيل .

من بحوث الندوة العالمية الأولى للأدب الاسلامى :

الأدب الاسلامى
فى تراثنا التاريخى و الجغرافى
(الحلقة الثانية)

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة « العربية » (Arabia) حالياً

هذا هو الأدب المنبث فى الكتابات المشرقة للفقهاء المبرزين ، لا تخطئه حتى وهم يناقشون أدق القضايا الفقهية . . . . ترى ابن حزم يحدد ما يجب عمله « على كل مسلم عاقل بالغ من ذكر أو أنثى حر أو عبد . . . » و بعد أن يعدد أبوابه يقول : « فهذا كله لايسع جهله أحداً من الناس : ذكورهم و إناثهم ، أحرارهم و عبيدهم و إمائهم ، و فرض عليهم أن يأخذوا فى تعلم ذلك من حين يبلغون الحلم و هم مسلمون ، أومن حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم . و يجبر الامام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا ، إما بأنفسهم وإما بالاباحة لهم لقاء من يعلمهم ، و فرض على الامام أن يأخذ الناس بذلك و إن يرتب أقواما لتعليم الجهال » . ثم يعرض بعد ذلك ما يجب عليه بوجه خاص فوق ذلك النصاب الأساسى العام بالنسبة لبعض الفئات مثل أصحاب الأموال و التجار و الأمراء و القواد و القضاة . كما يناقش التكاليف الشرعية المفروضة على المرأة المسلمة التى تشترك فيها مع الرجال و منها العلم فيقول : « فان قالوا : فأوجبوا الجهاد فرضاً على النساء قيل لهم : لولا قول رسول الله لعائشة إذ استأذنته فى الجهاد (لكن أفضل الجهاد حج مبرور) لكان الجهاد عليهن فرضاً . لكن علمنا بهذا الحديث أن

الجهاد على النساء ندب لا فرض لأنه عليه السلام لم ينهها عن ذلك ، و لكن أخبرها أن الحج لهن أفضل منه . فان قالوا : فأوجبوا عليهن النفار للتفقه فى الدين و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، قلنا : نعم هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجال . و فرض على كل امرأة التفقه فى كل ما يخصها كما أن ذلك فرض على الرجال ، ففرض على ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة ، و فرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة و الصلاة و الصوم و ما يحل و ما يحرم من المآكل و المشارب و الملابس و غير ذلك — كالرجال ولا فرق . ولو تفقهت امرأة فى علوم الديانة للزمنا قبول نذارتها ، وقد كان ذلك — فهؤلاء أزواج النبى وصواحبه قد نقل عنهن أحكام الدين و قامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلتنا فى ذلك » (١) . فانظروا - رحمكم الله - كيف يجتمع الفقه و الأدب فى ذخائر تراثنا من الموسوعات الفقهية الضخمة ، مما قد لا يتوقع فيه كثيرون أن يكون محلا للتعبير الأدبى .

أو استمع إلى الامام المجاهد تقى الدين ابن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هـ) يقول فى ختام كتابه الموجز العميق الممتع (السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى و الرعية) : « فالواجب اتخاذ الامارة دينا و قربة يتقرب بها إلى الله ، فان التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات ، و إنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها .... و غاية مريد الرياسة أن يكون كفرعون و جامع المال أن يكون كقارون ، و قد بين الله تعالى فى كتابه حال فرعون و قارون .... وقال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً و العاقبة للمتقين » (القصص / ٨٣) . فان الناس

(١) ابن حزم : الأحكام ج ٢ ص ٨١ - ٨٢ .

أربعة أقسام : الأول يريدون العلو على الناس والفساد فى الأرض و هؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون و حزبه وهؤلاء هم شرار الخلق . . . الثانى : الذين يريدون الفساد بلاعلو كالسراق المجرمين من سفلة النـاس . الثالث : يريد العلو بلافساد كالذين عندهم دين يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس. وأما القسم الرابع : فهم أهل الجنة الذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم . . . . فكم ممن يريد العلو ولا يزيده ذلك إلا سفولا ، و كم ممن جعل من الاعلين و هو لا يريد العلو ولا الفساد . و ذلك لأن إرادة العلو على الخلق ظلم لأن الناس من جنس واحد ، فارادة الانسان أن يكون هو الأعلى و نظيره تحته ظلم . . . ثم إنه مع هذا لابد فى العقل و الدين من أن يكون بعضهم فوق بعض ، كما أن الجسد لا يصلح إلا برأس . قال تعالى : « و هو الذى جعلكم خلائف الأرض و رفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » (الأنعام / ١٦٥) . . فجاءت الشريعة بصرف السلطان و المال فى سبيل الله . فاذا كان المقصود بالسلطان هو التقرب إلى الله و إنفاق ذلك فى سبيله ، كان ذلك صلاح الدين و الدنيا . و إن انفرد السلطان عن الدين ، والدين عن السلطان فسدت أحوال الناس و إنما يمتاز أهل طاعة الله عن أهل معصيته بالنية و العمل الصالح .... و كما غلب على كثير من ولاة الأمور ارادة المال والشرف صاروا بمعزل عن حقيقة الايمان وكمال الدين ، ثم منهم من غلب الدين و أعرض عما لا يتم الدين إلا به من ذلك ، و منهم من رأى حاجته إلى ذلك فأخذه معرضا عن الدين لا عتقاده أنه مناف لذلك ، و صار الدين عنده فى محل الرحمة و الذل لا فى محل العلو و العز . و كذلك كما غلب على كثير من أهل الديانة العجز عن تكميل الدين و الجزع لما قد يصيبهم فى اقامتهم من البلاء ،

استضعف طريقتهم و استذلها من رأى أنه لا تقوم مصلحة غيره بها . و هاتان السبيلان الفاسدتان : سبيل من انتسب إلى الدين و لم يكمله بما احتاج إليه من السلطان و الجهاد و المال ، و سبيل من أقبل على السلطان و المال و الحرب ولم يقصد بذلك إقامة الدين ، هما سبيل الضالين النصارى و المغضوب عليهم اليهود . و إنما الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين ، هى سبيل نبينا محمد ﷺ وسبيل خلفائه و أصحابه ومن سلك سبيلهم وهم السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . . . . . .

و جزى الله شيخ الاسلام خيراً عن كل ما انتفع بعلمه و بيانه ، لا ينقص ذلك من أجور هؤلاء المنتفعين شيئاً .

و هذا تلميذ شيخ الاسلام الامام ابن القيم (المتوفى سنة ٧٥١ هـ) ينقل مناظرة فى شأن ما يجوز من العمل بالسياسة فيقول « قال ابن عقيل : السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح و أبعد عن الفساد ، و إن لم يشرعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحى ، فان أردت بقولك : لا سياسة إلا ما وافق الشرع — أى مالم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ، و إن أردت ما نطق به الشرع (أى عيناً ونصاً) فغلط و تغليط للصحابة . . . ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف (لكفى) ، كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة . . . قلت : هذا موضع مزلة أقدام و مضلة أفهام ، و هو مقام ضنك فى معترك صعب . فرط فيه طائفة : فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرأوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، و سدوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من الطرق التى يعرف بها المحق من المبطل . . . و الذى أوجب لهم ذلك نوع

تقصير فى معرفة حقيقة الشريعة ، و التطبيق بين الواقع و بينها . فلما رأى ولاة الأمر ذلك و أن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشئ زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة ، أحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم ، فتولد من تقصير أولئك فى الشريعة و إحداث هؤلاء ما أحدثوا من أوضاع سياستهم شر طويل و فساد عريض ، و تفاقم الأمر و تعذر استدراكه . و أفرط فيه طائفة أخرى : فسوغت منه ما يناقض حكم الله و رسوله . و كلتا الطائفتين أتيتا من قبل تقصيرها فى معرفة ما بعث الله به رسوله ، فان الله أرسل رسله و أنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط — وهو العدل الذى قامت به السماوات و الأرض ، فاذا ظهرت أمارات الحق و قامت أدلة العدل و أسفر صبحه بأى طريق فثم شرع الله ودينه ورضاه و أمره . . . . لا نقول إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة ، بل هى جزء من أجزائها و باب من أبوابها ، و تسميتها سياسة أمر اصطلاحى ، و إلا إذا كانت عدلا فهى من الشرع (١) . « ومن له ذوق فى الشريعة و اطلاع كمالاتها ، و إنها لغاية مصلحة العباد فى المعاش و المعاد ، و بحبها بغاية العدل الذى يفصل بين الخلائق و إنه لاعدل فوق عدلها و لا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح ، عرف أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها . . . . فان السياسة نوعان : سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر هى عين الشريعة ، علمها من علمها وجهلها من جهلها » (٢) « اعلم أن الشريعة عدل

(١) ابن القيم : اعلام الموقعين - مراجعة عبد الرؤف سعد - القاهرة ج ٤ ص ٢٧٣ و انظر للمؤلف تفسير الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية - دار الباز بمكة المكرمة ص ١٢ - ١٤ .

(٢) الطرق الحكمية ص ٥ .

كلها ، و قسط كلها ، و رحمة كلها . . . فكل مسألة خرجت من العدل إلى الظلم و من القسط إلى الجور و من الرحمة إلى ضدها ، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل . . » (١) .

هذا البيان العذب الرقراق ، خرج من مشكاة واحدة مع العلم الغزير النافع والحجج القاطعة ، واقتبس من نور الأدب القرآنى وللقرآن المثل الأعلى ....ومثل هذا الأداء الذى يقرن العلم بالأدب ، و يؤلف بين النفع و الجمال ، هو أولى بأن يجلى و يبين للناس

و لقد عرفت الآداب العالمية مفكرين و علماء صاغوا فكرهم و علمهم فى بيان حلو أخاذ ، فكانت كتاباتهم مورداً فكرياً و نموذجا أدبيا فى نفس الوقت ، و كان أثرهم المتطاول لأدبهم نتيجة احتوائه فكراً و علما . . . وهل ينكر أحد هذا المورد الجامع للجمال الأدبى و الثراء الفكرى العلمى الفلسفى فى إنتاج مونتسكيو (المتوفى ١٧٥٥) و ديدرو (المتوفى ١٧٨٤) و روسو (المتوفى ١٧٧٨) و فولتير (المتوفى ١٧٧٨) فى تاريخ الفكر الفرنسى الحديث . . . . وهل ينكره أحد فى مؤلفات جيبون وويلز وتريفليان من المؤرخين البريطانيين المحدثين ؟ ؟

التعبير الأدبى فى تراثنا فى التاريخ و البلدان :

و استهدف فى حديثى إليكم تقديم بعض المقتطفات من تراثنا الزاخر فى مجال التاريخ و ما يتصل به من كتب السير و التراجم و الطبقات و الأنساب ، و فى مجال البلدان و ما يتصل بها من كتب الرحلات ، و لقد اعتبرت سلاسل عربية حديثة مشهورة فى (الفنون الأدبية) : (التراجم و السير) و (الرحلات) من هذه الفنون الأدبية . وكتب فى احدى هذه السلاسل الأديب المصرى المعروف الأستاذ

(١) اعلام الموقعين .

محمد عبد الغنى حسن كتاب (التراجم والسير) وكتب الدكتور شوقى ضيف أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة كتاب « الرحلات » فى نفس السلسلة. وكتب المستشرق الروسى كراتشكوفسكى كتابه المعروف (الأدب الجغرافى العربى) .

النموذج القرآنى لأدب التاريخ و السير :

إن القرآن الكريم و له المثل الأعلى قد علم المسلمين كيف تصاغ الحقائق التاريخية و الكونية الواقعة فى بيان رائع معجز ، دون أن ينال البيان الأدبى من الحقيقة التاريخية أو الكونية ودون أن تجنف الحقيقة التاريخية أو الكونية من نداوة التعبير الأدبى. يقول عز من قائل فى وصف مكان المعركة فى موقعة بدر: « إذ أنتم بالعدوة الدنيا و هم بالعدوة القصوى و الركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد و لكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة و إن الله لسميع عليم » (الانفال / ٤٢) . ثم يقول عز من قائل عن عدد جيش المشركين: « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى اعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله امراً كان مفعولا ، و إلى الله ترجع الأمور » (الانفال / ٤٤) و فى الآيتين تحديد دقيق للوقائع مصوغ فى بيان معجز يقدم النموذج الذى يستفاد منه و لكن لا يمكن بلوغ أحكامه ، ويخلص القرآن دائما إلى الحكمة و العبرة و النتيجة الاعتقادية الفلسفية للاحداث « ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور ويقول تعالى فى وصف تطور الوقائع بالنسبة لجيش المسلمين فى غزوة أحد: « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه ، حتى إذا فشلتم و تنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون و لا تلوون على أحد و الرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا

على ما فاتكم و لا ما أصابكم ، و الله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون : هل لنا من الأمر من شئ ، قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لوكان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ههنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، ولييتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم ، و الله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا و قالوا لاخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا و ما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، الله يحيي ويميت ، والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أومتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » (آل عمران / ١٥٢-١٥٧) .

ومرة أخرى يأتلف فى الآيات دقة العرض للوقائع - بما فى ذلك الوقائع النفسية فى أعماقها وأغوارها ، مع روعة البيان ، و يخلص هـذا التفصيل التاريخى الأدبى المعجز إلى الحقائق الايمانية التى ينبغى تأكيدها : « قل إن الأمر كله لله » . « والله يحيي ويميت ، والله بما تعملون بصير » « ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » .

و يكشف القرآن تحالف الكفـار و المنافقين و اليهود فيما ذكره عن إجلاء يهود بنى النضير بعد معركة أحد : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم و لا نطيع فيكم أحداً أبداً و إن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، و لئن قوتلوا لاينصرونهم ، و لئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا

إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم و لهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها و ذلك جزاء الظالمين » (الحشر ١١ -١٧).

و فى غزوة الأحزاب يصور القرآن التحزب و التعصب بين الكفار و أهل الكتاب من اليهود و المنافقين و أثره الموقوت ويخلص من ذلك إلى سوق الحقائق الاعتقادية و تثبيتها : « إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم و إذ زاغت الابصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون و زلزلوا زلزالا شديدا . إذ يقول المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون إن بيوتنا عورة و ما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا . و لو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا » (الأحزاب ١٠ - ١٦) .

و قد اجتمع على المسلمين كيد الكافرين و المنافقين و حلفائهم اليهود مرة أخرى يوم الاحزاب : « قد يعلم الله المعوقين منكم و القائلين لاخوانهم هلم إلينا و لا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم ، فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد ، أشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم و كان ذلك على الله يسيراً .

يحسبون الاحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » (الأحزاب / ١٨-٢٠) . على أنه كانت إلى جانب الصور السلبية التى يذكرها القرآن عن معسكر المسلمين : « وفيكم سماعون لهم » (التوبة) صور إيجابية مشرقة مضيئة « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أويتوب عليهم ، إن الله كان غفوراً رحيما » (الاحزاب / ٢٢-٢٤) . وهكذا كانت العاقبة للمتقين ، و الدائرة على الكفار و المنافقين وحلفائهم اليهود « و رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . و أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم و قذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون و تأسرون فريقا . و أورثكم أرضهم و ديارهم وأموالهم و أرضا لم تطأوها و كان الله على كل شئ قديراً » (الأحزاب / ٢٥ - ٢٧) .

ويطول بنا العرض لو أردنا أن نستقصى ما ذكره القرآن عن وقائع غزوات الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وما اشتملت عليه من بيان دقيق للوقائع المادية والنفسية فى أسلوب رائع معجز . يسوق إلى تثبيت حقائق الايمان فى النفوس و العقول ، و حسبنا أن نشير بالاضافة إلى ما سبق إلى ماورد عن يوم الحديبية فى سورة الفتح ، و ما ورد عن غزوتى حنين و تبوك فى سورة براءة ، فضلا عما ذكره القرآن من وقائع أخرى متعددة منه .

كذلك عرض القرآن لسير الأنبياء و المرسلين ، و فصل سيرة خاتمهم محمد عليه أفضل الصلوات و التسليم ، ونسوق نموذجا جامعاً معبراً من سيرة يوسف عليه

السلام التى قصتها السورة المعروفة باسمه . وتفتح السورة و السيرة بهذا الاستهلال البليغ المشرق : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن و إن كنت من قبله لمن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً و الشمس و القمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك و على آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم ، واسحق ، إن ربك عليم حكيم » (يوسف / ٣ - ٦) . و تفاصيل سيرة نبى الله الكريم بن الكريم يوسف عليه السلام - كما وصفه النبى محمد ﷺ فى آيات القرآن غاية فى الروعة البيانية و العبرة الاعتقادية الاخلاقية . وكما استهلت السيرة بذلك الاستهلال الرائع ، اختتمت بهذا الختام الأخاذ الذى أجل وقائع السيرة وخلص إلى غايتها التربوية « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون . قالوا : يا أبانا استغفرلنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم . فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه و قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . و رفع أبويه على العرش و خروا له سجداً ، و قال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، و قد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن و جاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك و علمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات و الأرض أنت ولى فى الدنيا و الآخرة توفنى مسلما و ألحقنى بالصالحين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك و ما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . و ما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (يوسف / ٩٦-١٠٣) . وتأتى آخر آيات السورة و السيرة

تؤكد الحكمة من سوق وقائع التاريخ الصحيحة « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى و لكن تصديق الذى بين يديه و تفصيل كل شئ و هدى و رحمة لقوم يؤمنون » (١١١) .

و يعرض القرآن لظواهر الكون عرضه الذى يقترن فيه ذكر الحقائق بروعة البيان و يخلص إلى تأكيد الايمان : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، و من الجبال جدد بيض و حمر مختلف ألوانها و غرابيب سود . و من الناس و الدواب و الأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » (فاطر / ٢٨) ، « و سخر لكم الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه و لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم » (النحل ١٢ - ١٨) « و من آياته خلق السموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . و من آياته منامكم بالليل و النهار و ابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . و من آياته يريكم البرق خوفا وطمعا و ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الروم / ٢٢ - ٢٤) ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه و إليه النشور » (الملك / ١٥) .

و يسوق القرآن رحلة ذى القرنين ، فيتتبع مواقعها و ما تبينه صاحبها فى كل موقع من ظواهر طبيعية و بشرية : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما . (الكهف / ٨٦) « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك و قد أحطنا بما لديه خبراً . ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سداً . قال ما مكنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة أجعل بينكم و بينهم ردما » (الكهف / ٩٠ - ٩٥) .

و أخبار هذه الرحلة تستهل بتقرير ما أنعم الله على الانسان بعامة وعلى ذى القرنين بخاصة من طاقات و إمكانيات ووسائل فى نفسه وفيما تحت يده ، وإنه قد استثمرها بحق و لم يهملها فساقت إلى المزيد من العلم و المعرفة : « إنا مكنا له فى الأرض و آتيناه من كل شئ سبباً . فأتبع سببا » (الكهف / ٨٤ - ٨٥) .

« يتبع »

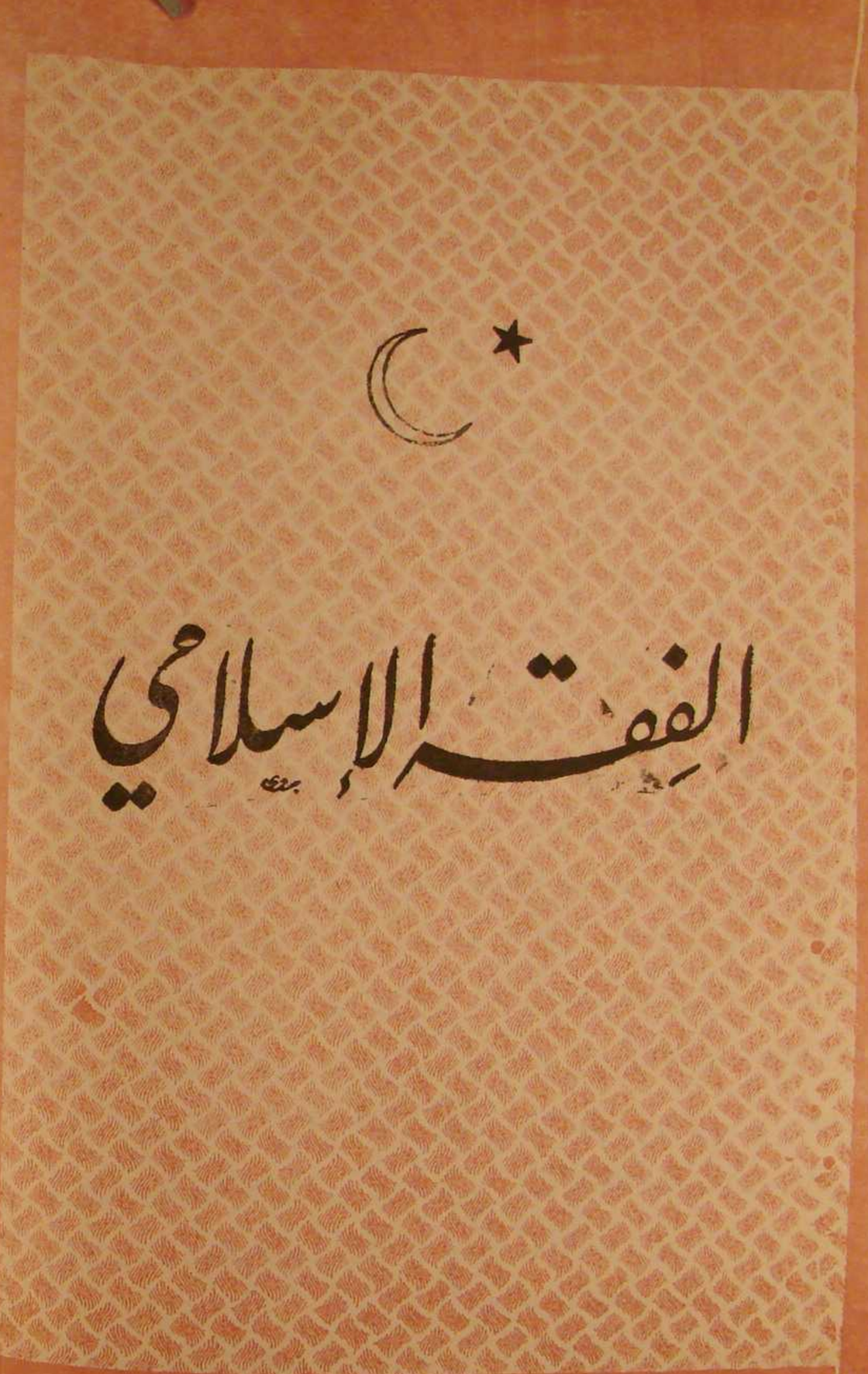

الفوائد المصرفية و ربويتها و حكم الانتفاع بها

— ٢ —

فضيلة الشيخ محمد برهان الدين السنبهلى
أستاذ التفسير و الحديث و أمين مجلس الدراسات الشرعية
بدار العلوم لندوة العلماء - لكناؤ (الهند)

تعريب : محمد أكرم الندوى

يجدربنا و نحن نريد أن نتعرف على حكم الشرع فى هذه القضية أن ننظر فى أبعادها .

إن هناك أربع جهات لهذه القضية : (١) أن يأخذ الربا من المصرف وينفق على نفسه (٢) أن لا يأخذه بل يتركه إلى المصرف يوجهه حيث شاء (٣) أن يأخذه ثم يتلفه (٤) أن يأخذه ويوزعه على الفقراء ، و ههنا جهة إمكانية أخرى وهى أن ينفقه على الأغنياء ولكن هذه الجهة ليست بمعزل عن الجهة الأولى. لأن الانفاق على الأغنياء مثل الانفاق على نفسه ، فان هذا الانفاق يسمى فى الشرع هدية و الهدية من مصاريف الرجل الذاتية من حيث إن فائدتها قد ترجع إلى صاحبها عاجلا أو آجلا أو أنه يتوقع أن ترجع إليه فائدتها .

فأما الصورة الأولى فلا تباح أصلا لأن معنى إباحتها أكل الربا من غير ضرورة — و من المعلوم أن القرآن و الحديث قد حرما الربا و شددا الوعيد عليه ، ولم يختلف فيه من العلماء أحد بل أجمعت الأمة عليه .

لا حاجة هنا إلى ذكر أن المرء قد يحتاج إلى التعامل مع المصارف الربوية فيباح هذا (إذا مست الحاجة أو الضرورة) و أما أكل الربا فلا حاجة إليها ولا ضرورة بصفة عامة (لا سيما للذين يضطرون إلى إيداع النقود فى المصارف) ولا يغيبن عن البال أننا لم نعن بالضرورة أو الحاجة إلا المصطلح الشرعى (المذكور

و المبين سابقاً) و أما الصورة الثانية التى مفادها أن تترك الفائدة إلى المصارف لتضعها حيث شاءت ، فانها - مهما اعتبرها بعض الناس اقتضاء التقوى و موافقة حكم الشرع ، و مهما ترجح هذا الرأى لديهم - لا يشك فى تحريمها أو كراهيتها كل من له أدنى بصيرة نافذة و عرف نظام المصارف فى توزيع هذه المبالغ ، فانه قد عرف بطرق أمينة - بل هى حقيقة ثابتة - أن مبالغ الربا التى يرفضها صاحبها لا ترد البنك إلى مستحقيها الذين أخذت منهم (١) بل تضعها حيث شاءت من جهات الصرف ، و هذه الجهات — مهما كانت صالحة لدى مديرى المصارف ، و لكنها — من وجهة النظر الاسلامية — ضارة و أداة هدم للدين و المجتمع ، و تشهد التجارب أن هذه المبالغ تنفق على المؤسسات التى تعمل لهدم الاسلام ولهذا نظائر لا تحصى ، ففى الهند — فى عهد الاستعمار البريطانى — أنفقت مبالغ المسلمين الربوية على بناء الكنائس و على إرساليات التبشير ، حتى بنيت كنيسة بربا نقود مسجد ، لما نظر علماء المسلمين إلى هذه الحالة السيئة أصدروا فتواهم التى سنذكرها مفصلا (إنشاء الله تعالى) .

وأما اليوم — فى الهند — إن لم يبق احتمال إنفاق هذه المبالغ على الكنائس فانها يمكن أن تنفق على معابد الهندوس ، أو أى خطة تهدف إلى هدم الاسلام ، فترك مبالغ الربا إلى المصارف يرادف تقوية و دعم المؤسسات المعادية للاسلام

(١) إن المبالغ التى ينالها المودعون من المصرف باسم « الفائدة » إن هى إلا جزء من ذلك الربا الذى تناله المصارف من المجتمع ، و لا شك أن من وسائل دخل المصرف تجارته التى يقوم بها ، و لكن الحق أن هذه الوسيلة — كما قال الأستاذ المودودى — لا تشكل أكثر من ٥ — ١٠ ٪ من مجموع دخل المصرف .

فلا تباح هذه الصورة أصلا ، و لو فرضنا أنه علم أن المصرف لا ينفقها على بناء كنيسة أو معبد للهندوس و لا على أى عمل هدام ، فانه يعتبر من الخرق أن يترك المسلم إلى الغير مبالغه التى يستحق أن يتصرف فيها شرعاً (قانوناً) فى فيه زمن حربنا مرارا العدوان و إضاعة الحقوق للعصبيات الدينية .

وأما الصورة الثالثة التى مضمونها ، إتلاف مبالغ الربا ، فلا يستبيحها كل من أوتى حظا من العقل و الفهم لأن المال نعمة من الله و ليست بنجس بنفسه ، والخباثة التى التصقت به إنما هى لأجل اكتسابه من غير طريق شرعى يستدرك بوجوه أخرى ، فاتلافه إهدار نعمة الله ، و هذا حرام ، يقول الشيخ مصطفى الزرقاء :

« فالمال النافع لا ذنب له حتى نحكم عليه بالاعدام ، فاتلافه إهدار لنعمة الله ، و هو عمل أخرق و الشريعة الاسلامية حكمة كلها لأن شارعها حكيم » .

الحل الصحيح الناجع لهذه القضية :

إذا بطلت هذه الصور الثلاث بقيت الصورة الأخيرة و « هى التوزيع على الفقراء » هذا هو الجواب الصحيح عن السؤال و الحل الوحيد للمشكلة الذى أجمع عليه جل علماء العرب و العجم (تلويحاً ، أو تصريحاً) نذكر أولا فتاوى بعض فقهاء الهند ، ثم نذكر الجزء المهم من تقرير الندوة المنعقدة بجدة .

كتب المفتى الأسبق الأكبر لدارالعلوم بديوبند فضيلة الشيخ عزيزالرحمن - رحمه الله - قبل نصف قرن ، وهو يجيب على سؤال وجه إليه ! « إن الفوائد المعينة التى ينالها المودعون من المصارف هى ربا فى الشرع يحرم أخذها (١) و من أخذها وجب عليه توزيعها على الفقراء » و له فتاوى عديدة من هذا النوع فى « مجموعة فتاوى

(١) يعنى أخذ الربا حرام أصلا ، و لكن إباحة الأخذ و إيتاءه الفقراء (بل استحبابه) للصالح التى قدمنا ذكرها ، وسيأتى ذكرها فى بعض الفتاوى أيضاً

دار العلوم » (١) .

و أفتى المفتى السابق بدار العلوم بديوبند و مفتى باكستان الأكبر الأسبق فضيلة الشيخ محمد شفيع بما نصه : « ينبغى لمن أودع النقود فى المصارف أن لا يترك رباها إليها لأنها تنفقه على التبشير المسيحى ، بل يأخذه المودع و يتصدق به على الفقراء ، و لا يجوز إنفاقه على نفسه (٢) و هذا الذى يستفاد من فتوى للشيخ العلامة الجليل أشرف على التهانوى رحمه الله ، ما معناها « إذا خاف أنه لو ترك مبالغ الربا فى المصرف يصرفها إلى الجهات التى ورد الشرع بتحريمها لا يجوز له تركها بل يأخذها ويوزعها على الفقراء (٣) وفى الجز الثالث من الفتاوى الرحيمية (الصفحة ٢٦٢-٢٦٤) نجد فتاوى عديدة لعلماء الهند الأفاضل التى تفيد : « أنه يجب على من أودع النقود فى المصارف للضرورة أن يأخذ رباها و يصرفه إلى جهات الخير ، وعلى رأس هؤلاء العلماء شيخ الاسلام حسين أحمد المدنى رحمه الله تعالى والمفتى كفاية الله رحمه الله تعالى - يقول فقيه العصر مصطفى الزرقاء فى مقاله الذى أعده للنـــدوة .

« إذا كان المودع لدى المصارف الربوية لا يجوز له شرعاً أن يستبيح لنفسه أكل الفوائد التى يحتبسها له المصرف ولا أن يتركها للصرف . فما التدبير الصحيح ؟ و الجواب على هـذا السؤال الوجيه كما أفتيت به و ناقشت الكثيرين . . هو أن التدبير الصحيح الشرعى فى هذه الفوائد أن يأخذهـا المودع من المصرف ، دون أن ينتفع به فى أى وجه من وجوه الانتفـاع . . فعليه أن يأخذ تلك الفوائد

(١) من أراد التفصيل فليراجعها ، الصفحة ٢٩ - ٣٣ ج٧ ، ٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) امداد الفتاوى ص١٣٣ ، نشر هذه المجموعة المفتى محمد شفيع (رحمه الله) من باكستان .

التى يحتبسها له المصرف الربوى عن ودائعه لديه و يوزعها على الفقراء حصراً وقصراً لأنهم مصرفها الشرعى » .

و بعـد أن نوقش هذا الرأى السديد الذى قدمه الشيخ مصطفى الزرقاء فى الندوة المنعقدة بجدة (لعام ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م) أجمع العلماء الذين ينتمون إلى معاهد فكرية و مدارس فقهية مختلفة من شتى بلاد العالم الاسلامى ، من المملكة العربية السعودية ومصر والجزائر والأردن والعراق والشام ، (وساهم فيها من شبه القارة الهندية سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، و هذا الكاتب) أجمعوا على رأيه و أيدوه .

نتشرف بذكر أسماء بعض العلماء و الفضلاء المجلين الذين ساهموا فى تلك « الندوة العلمية » (وعلى رأسهم صاحب « البحث القيم » و الرأى السديد العلامة مصطفى الزرقاء - السورى ، حفظه الله ورعاه)

★ من السعودية .

صاحب المعالى فضيلة الشيخ صالح الحصين (المستشار بديوان مجلس الوزراء) و فضيلة الشيخ عبد الله سليمان بن منيع (القاضى بمحكمة التمييز بمكة المكرمة)

★ من مصر .

فضيلة الأستاذ الدكتور حسن على أحمد الشاذلى وكيل كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر القاهرة .

★ من الجزائر :

معالى الوزير فضيلة الأستاذ عبد الرحمن شيبان (كان فضيلته حينذاك عضواً للمجلس الاسلامى الأعلى ثم أكرمه الله تعالى بوزارة الأوقاف و الشئون الدينية بالجزائر حفظه الله و رعاه ، و لا يزال موفقاً للخير و نشر العلم و تأييد الدين القويم)

★ من الأردن :
فضيلة الأستاذ الدكتور سامى محمود رئيس البنك الاسلامى الأردنى (عمان)

★ من العراق :
الامام محمود محمد على الهاشمى (من علماء النجف) .

الاجابة على سؤال :

يمكن أن ينشأ هنا فى بعض الأذهان أن المال الذى لا يباح للاغنياء كيف يحل للفقراء (إذا الحكم الشرعى لا يميز بينهم) نجيب عن هذا السؤال بشئ من التفصيل .

ينبغى لنا أن نعرف - قبل الاجابة عن هذا السؤال - أن المال الذى يناله المودعون من المصرف باسم « الفائدة » ليس من خالص ماله - فى الأكثر - بل من الفوائد التى يناله من المجتمع لأن المبالغ التى تنال باسم « الفائدة » لا يجوز أن يأخذها شرعاً بل يجب أن يردها إلى أصحابها الحقيقيين شرعاً (١) ، و لكن المصرف يعطى هذا المبلغ المودعين لديه وهم لا يعرفون أصحابه الحقيقيين (و لو عرفوهم لتعين الرد عليهم شرعاً) و من الأصول المقررة فى الشرع أن المبلغ الذى لا يعرف صاحبه يتصدق على الفقراء ، فكأن الشرع جعله نائباً للتصدق عن صاحبه ، و إذا حل التصدق على الفقراء جاز لهم الانتفاع به ، وهذا هو حكم سائر المبالغ التى تحصل عن طريق محرم أن يبذل وسعه أولا فى ردها على صاحبها ، و إذا تعذر ذلك وجب التصدق بها ، اتفق عليه فقهاء سائر المذاهب .

(١) أجمعت الأمة على أن رد الربا على صاحبه لازم ، ولكن اختلفوا فى أنه هل تثبت ملكية أخذ الربا بعد القبض أم لا ؟ الأكثرون على أنه لا تثبت ، ولو سلم ثبوت الملكية للاخذ (كما ذهب إليه البعض) لما أبيح ترك الربا لدى المصارف ، للصالح التى قدمناها ، و كذلك الحكم إذا تحقق أن المصرف يعطى الربا من دخله التجارى » .

يقول العلامة ابن تيمية فى فتاواه :

« سئل عن رجل مراب خلف مالا و ولداً و هو يعلم بحاله ، فهل يكون المال حلالا للولد بالميراث أم لا ؟ فأجاب : أما القدر الذى يعلم أنه ربا فيخرجه إما أن يرده إلى صاحبه إن أمكن و إلا تصدق به » (١) .

و يقول القرطبى (المالكى) فى تفسيره « جامع أحكام القرآن » :

« قال علماؤنا أن سبيل التوبة من يده من الأموال الحرام إن كانت عن ربا فليردها على من أربى عليه و يطلبه إن لم يكن حاضراً ، فان يئس من وجوده فليتصدق بذلك عنه ، و إن أخذه بظلم فليفعل كذلك فى أمر من ظلم » (٢) .

و لقد عالج ابن القيم هذا الموضوع حيث قال فى كتابه ، زاد المعاد » :

« فان قيل فما تقولون فى كسب الزانية إذا قبضته ثم تابت ، هل يجب عليها رد ما قبضته إلى أربابه أم يطيب له أم يتصدق به ؟ قلنا هذا يبنى على قاعدة عظيمة من قواعد الاسلام ، وهى أن من قبض ما ليس له قبضه شرعاً ، ثم أراد التخلص منه ، فان كان المقبوض قد أخذ بغير رضا صاحبه و لا استوفى عوضه رده عليه ، فان تعذر رده ، قضى به ديناً يعلم عليه ، فان تعذر ذلك رده إلى ورثته ، فان تعذر ذلك تصدق به عنه . . . كما ثبت عن الصحابة رضى الله عنهم ، وإن كان المقبوض برضا الدافع ، و قد استوفى عوضه المحرم ، كمن عاوض على خمر أو خنزير ، فهذا لا يجب رد العوض على الدافع لأنه أخرجه باختياره واستوفى عوضه المحرم فلا يجوز أن يجمع له بين العوض والمعوض ، فان فى ذلك إعانة له على الاثم والعدوان ، وتيسيراً

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٢٩ ص ٣٠٧ كذلك بصفحة ٣٠٨ ، ص ٣٠٩ فتاوى متعددة له .

(٢) ج ٣ ص ٣٦٦ من تفسير القرآن للقرطبى .

لاصحاب المعاصى عليه . و لكن لا يطيب للقابض أكله بل هو خبيث ، كما حكم عليه رسول الله (ﷺ) . . . فطريق التخلص منه تمام التوبة بالصدقة به . . فهذا حكم كل كسب خبيث لخبث عوضه عيناً كان أو منفعة » (١) .

و إلى هذا ذهب فقهاء الحنفية فى المال الحرام الذى تعذر رده إلى صاحبه . جاء فى الدر المختار : « من عليه ديون و مظالم جهل أربابها و يئس من عليه ذلك من معرفتهم فعليه التصدق بقدرها . . . كمن فى يده عروض لا يعلم مستحقيها اعتباراً للديون بالأعيان ، و متى فعل ذلك سقط عنه المطالبة فى العقبى » .

ثم علق عليه ابن عابدين الشامى و قال : (قوله كمن فى يده عروض إلى آخره) يشمل ما إذا كانت لقطة أو غصباً أو رشوة ، فان كانت لقطة فقد علم حكمها (أى وجوب التصدق بها) إن كان غيرها فالظاهر وجوب التصدق بأعيانها ، و قوله « سقط عنه المطالبة » . . . لأنه بمنزلة المال الضائع ، و الفقراء مصرفه عند جهل أربابه » (٢) .

يظهر من دراسة كتب الحنفية أنهم يعتبرون هذا المال لقطة ، فان الوصف الجامع بين اللقطة و المال المجهول هو أن صاحبهما غير معلوم ، و من حاز مثل هذا المال يريد البراءة من ذمته فى الدنيا وفى الآخرة فتأمره الشريعة بأن يتصدق به على الفقراء ، وقد جاء فى الأحاديث والآثار ما يدل على هذا الحكم للقطة ، أخرج البزار و الدار قطنى عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى (ﷺ) سئل عن اللقطة فقال ، لا تحل اللقطة فمن التقط شيئاً فليعرفه سنة ، فان جاء صاحبه فليرده إليه و إن لم يأت فليتصدق به ، . . الحديث (٣) .

(١) زاد المعاد ج ٤ ص ٢٤٢ .
(٢) رد المحتار مع الدر المختار ج٣ ص ٣٢٣ .
(٣) الدراية لتخريج أحاديث الهداية للزيلعى على هامش الهداية ج٢ ص ٥٩٤ .

و إلى هذا ذهب عدد من كبار الصحابة و التابعين ، كما قال الترمذى فى جامعه : « قال بعض أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم : يعرفها سنة فان جاء صاحبها و إلا تصدق به ، و هو قول سفيان الثورى و عبد الله بن المبارك » (١) .

وقال الفلسفى الفقيه العلامة ابن رشد فى كتابه الشهير « بداية المجتهد » « وروى هذا القول عن على و ابن عباس و جماعة من التابعين » (٢) .

و نقل صاحب الجوهر النقى عن « المصنف » لابن شيبة بسنده المتصل أنه « كان عمر يأمر أن تعرف اللقطة ، فان جاء صاحبها و إلا تصدق بها . . . و قال : « هذا سند جليل متفق عليه إلا إبراهيم فان مسلما انفرد به » (٣) و نسب هذا المذهب إلى على و عائشة و ابن عباس بأسانيد متصلة و كذلك نسبه إلى عبيد الله

(١) الجامع للترمذى باب ما جاء فى اللقطة ج ١ ص ١٦٥ .
(٢) ج ٢ ص ٣٠٦ من بداية المجتهد . و كتب فقيه العصر المعروف بدقة نظره العلامة يوسف القرضاوى فى كتابه « فقة الزكاة » ما يدل على أن المال الذى ينال بطريق حرام لا يصح ملكه وإن قبض ، بل يجب التصدق به ، يقول : « المال الذى يجوزه صاحبه بطريق خبيث . . . كالغصب . . و الرشوة و الربا . . . فالصحيح أن هؤلاء لا يملكون هذه الأموال . . . وإن خلطوها بأموالهم الحلال حتى لم تعد تتميز منها ، قال العلماء « لو كان الخبيث من المال نصاباً لا يلزمه الزكاة لأن الواجب عليه تفريغ ذمته برده إلى أربابه إن علموا ، أو إلى ورثتهم وإلا فالى الفقراء ، و هنا يجب التصدق به كله » البحر الرائق و الحاشية لابن عابدين ج ١ ص ٢٢ (فقه الزكاة ج ١ ص ١٣٣)
(٣) الجوهر النقى ج ٢ ص ٤٣ .

ابن عمر ، وسعيد بن المسيب و الشعبي والحسن البصرى وطاؤس وعكرمة » (١)

إذا أجمع هذا العدد الكبير من الصحابة والتابعين على هذا الرأى انجبر الضعف الذى يوجد فى الحديث الموفوع و يبلغ درجة الاحتجاج كما قال المحقق ابن همام فى فتح القـدير : .

« فلو سلمنا ضعف حديث أبى هريرة فى الصدقة كفانا جواز التصدق بالاجماع » (٢)

ملخص القول أن فقهاء سائر المـذاهب أجمعوا على التصدق بالمال الحرام ، أما أبو حنيفة وأتباعه فقاسوه باللقطة ، ويجب عندهم تصدق اللقطة ، بناء على الدلائل السابقة ، و أما الأئمة الآخرون فانهم - و إن كانت اللقطة عند بعضهم مختلفة فى حكمها عن المال الحرام - أجمعوا على هذا الحكم فى المال الحرام ، و قد مر عن ابن القيم أنه يثبت هذا المذهب عن « الصحابة » ولقد أحسن صاحب الهداية حين قال : « فان جاء صاحبها دفعها إليه ، و إلا تصدق بها إيصالا للحق و هو واجب بقدر الامكان ، وذلك بايصال عينها عند الظفر بصاحبها وإيصال العوض - وهو الثواب - على اعتبار إجازته التصدق بها (٣) .

لا ينفق المال الحرام إلا على الفقراء :

يجـدر بنا أن نذكر هنا أن المال المكتسب عن الطريق الحرام ، و الذى لا يمكن أن يرد على أربابه يتعين التصدق به على الفقراء ، ولا يجوز صرفه إلى جهات أخرى ، كما أثبت فضيلة الشيخ المفتى محمد شفيع بالدلائل : أن التصدق به على الفقراء

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢) فتح التقدير ص ٤٣٤ ج ٤ ، من مطبوعات المطبعـة الكبيرة الأميرية ببولاق ، مصر ١٣١٦هـ .

(٣) الهداية ج ٢ ص ٥٩٥ .

متعين ، ولا يجوز انفاقه على مصارف أخرى » (كبناء المساجد و دور العلوم) و ألف فضيلته رسالة على هذا الموضوع أسماه : « اشباع الكلام فى مصرف الصدقة من الحرام » (١) اثبت فيها صحة هذا الرأى بدلائل كثيرة و رد على الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى رداً مقنعا ، و قـد أدى بالكاتب النظر فى دلائل كلا الجانبين إلى أرجحية هذا القول الذى أثبته فضيلة المفتى .

و قد أباح بعض العلماء صرف هذا المال فى الجهات العامة للخير ، و جاولوا أن يردوا على دلائل فضيلة المفتى ولكن كما قلنا إن الدلائل تدعم رأى فضيلته وتقويه .

و نذكر هنا جزءاً مهما من رسـالة فضيلة المفتى ، يقول : « إن الكتب الفقهية الموثوق بها نصت على ذلك بكلمات « تصدق به » أو « وجب عليه التصدق » و أمثالها ، و كذلك نجد فى الفتاوى البزازية و الفتاوى الهندية كلمة التصـدق ، و إذا أطلقوا الكلمة « التصدق » يريدون بها الصدقة الموجبة للتمليك و مصرفها الفقراء دون المساجد و المدارس ، قال الجصاص الرازى فى كتابه ، أحكام القرآن فى تفسير آية « و فى الرقاب » .

« و عتق الرقبة لا يسمى صدقة ، و ما أعطى فى ثمن الرقبة فليس بصدقـه . . . وأيضاً فان الصدقة تقتضى تمليكا . . . إذ شرط الصدقة وقوع الملك للتصدق عليه (أيضاً) (٢) .

(١) هذه الرسالة مطبوعة مع الجزئين السابع و الثامن من فتاوى دار العلوم ديوبند ص ١٠٥ - ١٠٨ ، و يتقوى « حكم التصدق بما حصل بغير طريق شرعى بأن أبا بكر لما جاء حاز الابل من المشركين حينما غلبت الروم على الفرس حسب ما اشترط معهم - قال له النبى ﷺ تصدق به » - (تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٣٢ سورة الروم) .

(٢) أحكام القرآن ج ٣ ص ١٥٤ ، ملخصاً من رسالة « إشباع الكلام » و أحال فضيلة المفتى على مصادر كثيرة لاثبات رأيه .

و كذلك نجد لفضيلة الشيخ المفتى عزيز الرحمن فتوى نصها كما يأتى:

« من أخذ المال الحرام وجب عليه رده إلى صاحبه أو إلى ورثته و إذا لم يمكن ذلك تصدق به على الفقراء و المساكين و على الطلبة و الأئمة و المؤذنين إذا كانوا فقراء ، و لكن لا يجوز أن تدفع به مرتبات الأساتذة و المدرسين ، ويكره استعماله فى المساجد » (١) .

كلمة مهمة :

فثبت أن لا بد من أن يتصدق بهذا المال الحرام على الفقراء و يملكهم ، نعم ! يجوز لهم بعد ذلك أن يصرفوه حيث شاءوا من مصارف الخير و الأمور المباحة ، من الأكل و بناء البيوت (٢) .

---

(١) الجزءان الخامس و السادس من مجموعة فتاوى دار العلوم ص ٣٤٧ .

(٢) لأن البخارى أخرج فى صحيحه عن النبى ﷺ : « أنه أتى بلحم تصدق على بريرة فقال هو عليها صدقة و هو لنا هدية » ج ١ ص ٣٠٢ ، كتاب الزكاة ، باب « إذا تحولت الصدقة ، و فى الباب حديث آخر أصرح من هذا رويته أم عطية الأنصارية ، قالت دخل النبى ﷺ على عائشة ، فقال : هل عندكم شئ فقالت لا إلا شئ بعثت به إلينا نسيبة (أم عطية) من الشاة التى بعثت لها من الصدقة ، فقال إنها قد بلغت محلها » معناه أن النبى ﷺ قبل لحم الشاة التى تصدق بها على أم عطية ، لأنه ﷺ لما تصدق بها عليها صارت ملكا لها ، فصح لها التصرف بالبيع و الهبة و غيرهما فلما أهدتها له ﷺ صح له القبول و الأكل لأنه الآن ليس بشاة الصدقة التى لا تحل له ﷺ ، بل صارت هبة فى حقه (مأخوذ من شرح البخارى للعسقلانى) و فى الفتح لابن حجر : قوله (بلغت محلها) أى أنها لما تصرفت فيها بالهدية لصحة ملكها لها انتقلت عن حكم الصدقة ، فحلت محل الهدية ، و كانت تحل لرسول الله ﷺ بخلاف الصدقة » ج ٣ ص ٣٥٧ و من هنا قال الفقهاء « إن تبدل الملك يوجب تبدل العين » .

إن العلماء و الذين ذهبوا إلى أن ربا البنوك المأخوذ منها يصرف فى سائر جهات الخير إنما ذهبوا إلى هذا نظراً إلى الهند (على فرض أنها دار الحرب) فانهم استدلوا بما جاء فى « الهداية » عن السير الكبير « للامام محمد : من أن مصرف أموال أهل الحرب مصالح المسلمين ، لو اقتصرنا هذا البحث على الهند (و سلمنا أنها دار الحرب) لكان فى الأمر سعة ، مع أن المقترضين من المصارف على الربا من المسلمين كذلك كما هم من الكفار ، ولا أخطئ لو قلت : إن عدد المقترضين من المسلمين أكثر نسبيا من غيرهم فيها ، فكيف يصح التسوية بين مصرف أموال المسلمين و مصرف أموال أهل الحرب ؟ ! لأجل ذلك نقول إن الافتاء بانفاق ربا البنوك العصرية على مصالح المسلمين العامة ولو بقصر النظر على الهند ليس من الاحتياط و التحفظ فى شئ (١) .

ثم إن قصر المسألة على الهند لا يصح ، إذا الربا قد غزا العالم كله ، والتعامل الربوى فى مصارف بلاد المسلمين سائد ، فيجب علينا - و نحن بصدد البحث عن حكم الربا - أن نقدم حلا يتبناه مسلمو العالم كله ، وإذا كان المال المستفاد من البنك يمكن أن يأخذه البنك من المسلمين وأعطاه المودع فلا بد للمودع من أن يجعله محل اللقطة ولذا اعتبر علماء الأحناف الفوائد المصرفية باللقطة - و يعرف كل من له أدنى معرفة بنظام المصارف ، أن التعرف على أصحاب هذه الفوائد لا يمكن ، فان من قوانين المصارف أن لا يطلع أحد على دفاتر الحسابات و الأرصدة و غيرها من التفاصيل

---

(١) على أن عبارة من « السير الكبير » تشير إلى أن أموال المسلمين فى دار الحرب و أنفسهم لا تحل لمسلم هناك (و هذا لاخلاف فيه بين علماء الهند أيضاً) و إليك نص السير الكبير و لو كانت هذه المعاملة بين مسلمين فى دار الحرب مستأمنين أو أسيرين كان باطلا مردوداً لأنهما يلتزمان أحكام الاسلام فى كل مكان : (شرح السير الكبير ج ٣ ص ٢٢٦ الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد (الهند) .

إلا أصحابها- فلا سبيل إلا إلى التصدق على الفقراء فانهم مصرفها الوحيدعندهم - أيضاً - .

و الفوائد المصرفية التى تنال من أموال تجارة المصارف، التى لا يصح ردها إليها - للصالح السابقة المعتبرة فى الشرع - فالتصدق بها كذلك واجب ثم إن العقود التى تزعم المصارف أنها تجارة هل هى تجارة شرعا ؟

الواقع يخالف ذلك ، لأن كثيراً من عقودها تدخل فى الربا .

فاتضح من هذا أن التصدق بالمال الحرام و الفوائد المصرفية واجب .

و ينبغى لمن تصدق بالمال الحرام أن لا ينويه عن نفسه بل عن صاحبه ، فانه نائب عنه شرعاً ، و صاحبه هو الذى يستحق الأجر و المثوبة (و لو نوى عن نفسه لكان خادعا آثما) إلا أنه ينال الأجر لتوسطه بين الفقير وصاحب المال .

ويقتضى هذا أن يجوز له التصدق على أبويه إذا كانا فقيرين وعلى نفسه إذا كان أهلا لذلك ، و لكن - رغم ذلك كله - لا يسمح له بذلك أبدا نظراً إلى المصالح و الحكم الشرعية فانه لو أبيح ذلك لتكاسل الناس فى البحث عن أصحاب المال و احتالوا لأنفسهم ، فانه سئل (الفقيه الحنفى الكبير) يوسف بن محمد عن غاصب ندم على ما فعل و أراد أن يرد المال إلى صاحبه و وقع له اليأس عن وجود صاحبه فتصدق بهذا العين ، هل يجوز للفقير أن ينتفع بهذا العين فقال لايجوز . . . إنما أجاب بهذا الجواب زجراً لهم كيلا يتساهلوا فى أموال الناس (١)

ملخص القول أن الفوائد التى تنال من المصارف يتعين التصدق بها على الفقراء ولا يصح توجيهها إلى مصارف أخرى :

أللهم أرنا الحق حقا و ارزقنا اتباعه و أرنا الباطل باطلا و ارزقنا اجتنابه و اهدنا سواء السبيل ، و صلى الله على سيدنا ورسولنا محمد و آله وأصحابه أجمعين .

(١) « الفتاوى الهندية » (المعروفة بالعالمكيرية) ج ٥ ص ١٥٧ (المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر ١٣١٠هـ) .

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى

فـــــــــــــــى

تاريخ التشريع الاسلامى

— ٨ —

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

★ حاجة المحدثين إلى الفقه :

إن هؤلاء المحدثين الأجلة وغيرهم من شيوخهم وأصحابهم وتلامذتهم اهتموا بجمع الأحاديث ، و تتبع طرقها و أسانيدها ، و البحث فى رواتها اهتماماً لايوجد له نظير ، و قد استغرقوا فى ذلك الجهد والطاقة ، و لكن جمع الحديث وطرقه ، والبحث فى أسانيده ليس هو الحل الوحيد لمسألة التشريع الاسلامى ، بل لابد من الترجيح و الاختيار ، الذى لا يتم إلا تحت أصول و ضوابط للترجيح و التقديم نص على نص آخر ، كما أنه لابد من الاستنباط والقياس فى مسائل كثيرة لم ينص عليها الكتاب ، و لا السنة ، و هذا يحتاج إلى تفقه ، و ضوابط معينة للاستنباط و الاستخراج ، و القياس ، و عند ما وصل المحدثون إلى هذا البحث كان لهم أحد موقفين :

★ موقف المحدثين من الفقه و أصوله :

١- إما أن يختاروا أحد أئمة الفقه ، و يرتضوا مسالكه الاجتهادية ، و يرجعوا إلى أصوله و ضوابطه ، يرجحون عليها و يقيسون ،

٢- وإما أن يتبنوا قواعد يضعونها من عند أنفسهم ، اهتداء بعمل الصحابة والتابعين فى موقفهم من الكتاب و السنة ، سواء يحددون هذه القواعد فى عبارات مقعدة أو يشيرون إليها بمسلكهم ، و طريقة تناولهم للأحاديث .

و قد برز كلا الموقفين فى صفوف المحدثين ، فكان هناك عدد من المحدثين يميلون إلى بعض الأئمة الفقهاء كيحي بن معين و وكيع بن الجراح ، و ابن المبارك وغيرهم يميلون إلى الامام أبي حنيفة . وكمسلم والبخارى وغيرهما يميلون إلى مذهب الامام الشافعى ، و كأبى داؤد والترمذى وغيرهما يميلون إلى مذهب الامام أحمد ، إلا أنه لم يكن ميلهم إلى هؤلاء الأئمة تقليداً . إنما كان موافقة وارتضاء لمسالكهم ، و ترجيحاً لبعضها على بعض ، كما كان هناك كثير من المحدثين لم يظهر ميلهم إلى أحد الفقهاء ، إنما كان مذهبهم اتباع الأثر ، والعمل بالحديث أنى ظهر ، وترجح لديهم ..

يقول الامام الدهلوى :

★ استقلال المحدثين بأصولهم الفقهية :

« فرجع المحققون منهم بعد إحكام فن الرواية ، و معرفة مراتب الأحاديث إلى الفقه ، فلم يكن عندهم من الرأى ، أن يجمع على تقليد رجل ممن مضى ، مع ما يرون من الأحاديث والآثار المناقضة فى كل مذهب من تلك المذاهب ، فأخذوا يتتبعون أحاديث النبى ﷺ وآثار الصحابة والتابعين والمجتهدين على قواعد أحكموها فى نفوسهم (١) »

لقد كان من أسباب انصراف هؤلاء المحدثين عن تقليد أحد الأئمة الأربعة ما رأوا من بعض الأحاديث الناقضة و الضعيفة فى كل مذهب ، فتقليد مذهب واحد بعينه فيه مخالفة تلك الأحاديث ، و الجمع بين المذاهب فكرة لعلها لم تراودهم و إن كانوا خطوا إلى ذلك خطوات عملية ، و تقررت لديهم من إدامة النظر فى النصوص التشريعية ، و أقوال العلماء الفقهاء من الصحابة و التابعين و أتباعهم رضى الله عنهم قواعد و أصول كانوا يسيرون فى ضوئها ، إذن فما هى هذه القواعد التى يمكن أن تسمى « قواعد فقه المحدثين »

(١) الانصاف : ٤٩ .

لقد استقرى الامام الدهلوى هذه القواعد و تحدث عنها فى إيجاز شديد ، سأوردها - فيما - يلى :

★ قواعد فقه المحدثين :

لم يبين المحدثون عن قواعدهم الأصولية بتفصيل ، ولم يضعوا فى هذا الموضوع - حسب ما أعلم - كتاباً يرجع إليه فى الكشف عن أصولهم وضوابطهم ، ولكن يستطيع المسلم بآثارهم ، و نتائج أقلامهم أن يستخرج من تضاعيف كلامهم أصولا يمشون عليها فى الترجيح و الاختيار ، و الاستنباط و القياس ، و قد كفانا مؤونة ذلك الامام الدهلوى ، فاستقرى من نصوصهم أصولهم ، و لا يمكن أن يقال أن جميعهم متفقون عليها ، فقد يكون بينهم خلاف فى بعض منها إلا أن صنيع معظمهم يدل عليها ، و هذه الأصول كالتالى :

١- « إذا وجد فى المسألة قرآن ناطق ، فلا يجوز التحول منه إلى غيره »

٢- « و إذا كان القرآن محتملا لوجوه ، فالسنة قاضية عليه »

٣- « فاذا لم يجدوا فى كتاب الله ، أخذوا بسنة رسول الله - ﷺ - سواء كان مستفيضاً دائراً بين الفقهاء أو يكون مختصاً بأهل بلد ، أو أهل بيت ، أو بطريق خاصة ، و سواء عمل به الصحابة و الفقهاء أو لم يعملوا به »

٤- « و متى كان فى المسألة حديث ، فلا يتبع فيها خلافه ، أثراً من الآثار ، و لا اجتهاد أحد من المجتهدين »

٥- « و إذا أفرغوا جهدهم فى تتبع الأحاديث و لم يجدوا فى المسألة حديثاً ، أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة و التابعين ، و لا يتقيدون بقوم دون قوم و لا بلد دون بلد ، كما كان يفعل من قبلهم »

٦- فان اتفق جمهور الخلفاء و الفقهاء على شيئ فهو المتبع .

٧- و إن اختلفوا أخذوا بحديث أعلمهم علماً ، و أورعهم ورعاً ، و أكثرهم ضبطاً أو ما اشتهر عنهم .

٨- فان وجدوا شيئاً يستوى فيه القولان ، فهى مسألة ذات قولين .

٩- فان عجزوا عن ذلك تأملوا فى عمومات الكتاب والسنة وإيماءاتهما واقتضاءاتهما و حملوا نظير المسألة عليها فى الجواب إذا كانتا متقاربتين بادىء الرأى ، لا يعتمدون فى ذلك على قواعد من الأصول ، و لكن على ما يخلص إلى الفهم و يثلج به الصدر ، كما أنه ليس ميزان عدد التواتر ، عدد الرواة و لا حالهم ، و لكن اليقين الذى يعقبه فى قلوب الناس (١) »

هذه هى الأصول التى ذكرها الامام الدهلوى لفقه المحدثين ، و صرح بأنها « مستخرجة من صنيع الأوائل (أى الصحابة و التابعين) و تصريحاتهم (٢) » ثم ساق لتأييد مدعاه آثاراً عن أبى بكر ، و عمر ، و ابن مسعود ، و ابن عباس ، و ابن سيرين ، و الأعمش ، والشعبى ، و وكيع ، و أنهم كانوا يخافون من القول بالرأى إلا عند الضرورة القصوى ، حيث لا يوجد هناك نص إطلاقاً ، فاذا وجد النص و ثبت فلا قول لأحد و لا رأى (٣) .

و إذا نظرنا فى هذه الأصول نجد بعضها تتفق مع أصول الفقه لدى عامة الفقهاء ، و بعضها تختلف عنها ، فكلهم مجمعون على هذا الترتيب : القرآن ، فالسنة ، فالاجماع ، فالقياس

أما إذا احتمل نص فى القرآن وجهين أو أكثر فهل يرجع رأساً إلى السنة ،

(١ - ٢) الانصاف : ص ٥٠ .

(٣) أنظر هذه الآثار فى مقدمة سنن الدارمى ، فقد نقلها الامام الدهلوى منها و انظر الانصاف : ص ٥١ - ٥٣ .

أو ينظر فى استعمالات القرآن و تعابيره ثم إلى السنة ، و هل يقيد مطلق القرآن و يخصص عامه بالسنة أولا ؟ و هل ينسخ نص فى القرآن بنص فى السنة أولا ؟ لم يتعرض أولئك المحدثون الأوائل لهذه الأبحاث ، إلا أنهم فى تداولهم لهذه الأمور كانوا أقرب إلى مذهبى الامام الشافعى و الامام أحمد - رحمهما الله -

كذلك ما رأينا فى عصر الأئمة الفقهاء من أخذ الامام مالك بعمل أهل المدينة و أحاديث رواتها و علمائها و أخذ الامام أبى حنيفة بأحاديث عبد الله بن مسعود و أصحابه فى الكوفة ، لم يعد ذلك الأخذ و الاتباع بهذه المحدودية فى عصر الامام الشافعى ، فقد سنحت له الفرصة فى تتبع آثار المدنيين والعراقيين والحجازيين - بصفة عامة - أكثر من غيره ثم اتسعت الدائرة فى عصر الامام أحمد بن حنبل ، واجتمعت لديه مئات الآلاف من الأحاديث وكثرت عنده الآثار ، و رأى الحاجة إلى الجمع و التطبيق ، فتعددت أقواله نظراً إلى تعدد الأحاديث فى المسألة ، و هذا ما أشار إليه الامام الدهلوى بقوله : « فاذا وجدوا شيئاً يستوى فيه القولان فهى مسألة ذات قولين » و قد تكون ذات أقوال كما نرى ذلك فى مذهب الامام أحمد .

« أما أنهم يأخذون بالحديث سواء عمل به الصحابة والفقهاء أولم يعملوا به » فانهم أحياناً يصرحون بحجيته وأنه صالح للعمل به ، ولكنهم يتحرجون من تطبيقه عمليا مثل حديث جمع الصلاتين من غير سفر و لا مطر ، فهو صحيح سنداً ، غير معمول به عند الفقهاء ، وإن كان روى عن بعض التابعين العمل به كالحسن البصرى ، فهم رغم اتفاقهم على صحة سنده لا يعملون به .

وعلى كل حال فانما لا أريد مناقشة هذه الأصول ، وموازنتها بأصول الفقهاء إنما أريد أن أقول إن هناك مفارقات و موافقات بين أصولهم هذه و أصول الفقهاء الأربعة ، وبذلك فانهم - رغم ميولهم القوية نحو الامام أحمد بن حنبل - أقرب إلى

الظواهر منهم إلى أحد الفقهاء المعروفين ، و يمكن أن نقول إنهم طبقة متوسطة بين الفقهاء الأربعة و بين أهل الظاهر .

ولقد كانت الطريقة التطبيقية لهذه الأصول التى أحكموها فى نفوسهم ، وتناقلوها فيما بينهم ، أسعفتهم فى جميع القضايا التى واجهتهم فأبدوا فيها وجهات أنظارهم المعتمدة على صحة الأحاديث وضعفها وعلى الأصول المتقدمة الذكر ، و لم تبق قضية واجهوها فعلا إلا كان لهم فيها حديث مرفوع أو موقوف أو أثر من الآثار أو استنباط و قياس على طريقتهم ، يقول الامام الدهلوى :

« و بالجملة فلما مهدوا الفقه على هذه القواعد ، فلم تكن مسألة من المسائل التى تكلم فيها من قبلهم والتى وقعت فى زمانهم إلا وجدوا فيها حديثاً مرفوعاً متصلا أو مرسلا ، أو موقوفاً ، صحيحاً أو حسناً أو صالحاً للاعتبار ، أو وجدوا أثراً من آثار الشيخين أو سائر الخلفاء ، وقضاة الأمصار ، وفقهاء البلدان ، أو استنباطاً من عموم أو إيماء أو اقتضاء ، فيسر الله لهم العمل بالسنة على هذا الوجه (١) »

ثم يقول الامام الدهلوى :

« و كان أعظمهم شأناً و أوسعهم رواية و أعرفهم للحديث مرتبة و أعمقهم

(١) الانصاف : ص ٥٤ ، لا يمكن إنكار تيسير الله - تعالى - لهم العمل بالسنة على هذا الوجه ، ولكن لم تصدر منهم كتب فى الشريعة الاسلامية تتناول جميع المجالات المدنية و السياسية و العسكرية و القضائية ، بحيث يمكن أن يكون ذلك دستوراً و قانوناً للدولة الاسلامية ، إنما قام بهذا العمل الفقهاء من أصحاب المذاهب الاربعة ، يمكن أن يقال إن هؤلاء المحدثين لم يولوا مناصب القضاء و الافتاء فى الحكومات الاسلامية ، فلم يعدوا أنفسهم لهذه المهمة ، ولكن فى عدم اختيارهم قضاة ومفتين دليل ظاهر على عدم كفايتهم وقيامهم بهذا الجانب المهم الذى لايكتمل العمل بالسنة إلا به ، وهذه إشارة تحتاج إلى تفصيل فى مقال مستقل .

فقهاً أحمد بن حنبل ثم إسحاق بن راهويه ، وكان ترتيب الفقه على هذا الوجه يتوقف على جمع شيئ كثير من الأحاديث والآثار حتى سئل أحمد : يكفى الرجل مائة ألف حديث حتى يفتى ؟ قال : لا ، حتى قيل : خمسمائة ألف حديث قال أرجو (١) ،

يفيد هذا التصريح من الامام الدهلوى أن الامام أحمد هو رأس هؤلاء المحدثين الفقهاء الذين تناول أصولهم ، و طرق استخراجهم للمسائل ، مع أنه صرح فى مكان آخر أن مذهب الامام أحمد فرع لمذهب الامام الشافعى ، وقد قدمت هذا فى الحلقة السادسة مع مناقشة هذا الرأى ، و ترجيح أن مذهب الامام أحمد مذهب مستقل وإن كان يميل كثيراً إلى الامام الشافعى وتأثر به وأثنى عليه ، و لذلك فلا يستقيم عد الامام أحمد من هؤلاء المحدثين لأن أصوله تختلف عن أصولهم ، فهو من المحدثين الفقهاء الذين يميلون فى أصولهم إلى الأئمة الثلاثة الفقهاء و أصول مذهبه مدونة محررة ، و أقواله فى المسائل متعددة ، وعمله فى الترجيح بحذر ، وتحفظه فى إطلاق الحكم ظاهر ، كل هذا يجعل له شخصية مستقلة متميزة عن هؤلاء المحدثين ، الذين لا تتعدد أقوالهم و ليس موقفهم كموقف الامام أحمد فى الترجيح و الحكم .

أما المحدثون الآخرون الذين ذكرهم الامام الدهلوى و ما أنجزوا من أعمال فسيكون حديثى عنهم فى الحلقة القادمة - إن شاء الله تعالى .

(١) الانصاف : ص ٥٤ ، و ينبغى أن يعلم أن متون الأحاديث ليست بهذه الكثرة التى ذكرها الامام أحمد ، حتى إنها لاتبلغ مائة ألف ، ولكن مراد المحدثين من تعدادهم للأحاديث إنما هو تعداد طرقها و أسانيدها ، و كل سند جديد يسمى عندهم حديثاً ، و الحاجة إلى هذه الأسانيد ماسة أيضاً لمعرفة درجة الأحاديث ، و للاعتبار ، فمن هذه الناحية يحتاج المفتى أحياناً إلى هذا العدد الضخم من الأحاديث ، و ليس هذا هو القدر الضرورى إنما هو قدر الكمال .

المستشرقون والقرآن الكريم

—: ٥ :—

محمد صدر الحسن الندوى

★ أضواء على خلفية هذا الحادث الطريف :

كانت الامبراطورية الفارسية تقع فى شرقى الجزيرة العربية ، على الساحل الآخر للخليج العربى ، على حين كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من غربى الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود ، و قد سميت الأولى ـ أيضاً ـ بالامبراطورية الساسانية ، والأخرى بالبيزنطية ، وكانت حدود الامبراطورية تصل إلى الفرات ودجلة ، فى شمالى الجزيرة العربية ، وكانت أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر .

ويبدأ تاريخ الامبراطورية الرومانية ـ كما يرى المؤرخ « جبن » ـ فى القرن الثانى بعد الميلاد ، و كانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية فى العالم.

و قد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم ، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى (١) .

وليس يغنى كتاب من الكتب التى ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى .

ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ « ادواردجبن » : « تاريخ سقوط واندحار الامبراطورية الرومانية » (٢) أكثرها تفصيلا وثقة ، و قد ذكر المؤرخ فى الجزء الخامس من كتاب الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا .

اعتنق الملك قطسنطين ، الدين المسيحى عام ٣٢٥ ، وجعله ديانة البلاد الرسمية ، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم ، وعلى الجانب الآخر رفض الفرس ـ عباد الشمس ـ هذه الدعوة .

و كان الملك الذى تولى زمام الامبراطورية الرومانية فى أواخر القرن السابع

(1) WESTERN CIVILINATION P. 210
(2) THE HISTORY OF THE DECLINE AN FALL OF THE ROMAN EMPIRE BY EDWARD GIBBON.

الميلادى هو « موريس » ، و كان ملكاً غافلا عن شئون البلاد و السياسة و لذلك قاد جيشه ثورة ضده بقيادة فوكاس (Phocas) و أصبح فوكاس ملك الروم بعد نجاح الثورة للقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية (١) و أرسل سفيراً له إلى إمبراطور إيران كسرى ابرويز الثانى و هوابن « انوشيروان » العادل .

وكان كسرى هذا مخلصاً للملك موريس حينما كان لجأ إليه عام ٥٩٠ ـ ٥٩١ بسبب مؤامرة داخلية فى الامبراطورية الفارسية وقد عاونه موريس بجنوده لاستعادة العرش ، و مما يروى أيضاً أن كسرى تزوج بنت موريس أثناء إقامته ببلاد الروم و لذلك كان يدعوه بالأب .

و لما عرف باخبار إنقلاب الروم غضب غضباً شديداً و أمر بسجن السفير الرومى و أعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة .

و أغار كسرى ابرويز ٥٩٠ ـ ٦٢٨ على بلاد الروم و زحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام ، ولم يتمكن فوكاس من مقاومة جيوش الفرس التى استولت على مدينتى « أنطاكية » و « القدس » فاتسعت الامبراطورية الفارسية فجأة إلى وادى النيل ، و كانت بعض الفرق المسيحية ـ كالنسطورية واليعقوبية ـ حاقدة على النظام الجديد فى روما ، فناصرت الفاتحين الجدد و تبعها اليهود مما سهل غلبة الفرس .

و أرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومى فى المستعمرات الأفريقية ، يناشدونه إنقاذ الامبراطورية ، فأرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب « هرقل » فسار بجيشه فى الطريق البحرية بسرية تامة ، حتى إن فوكاس لم يدر بمجيئهم إلا عندما شاهد الأساطيل ، و هى تقرب من السواحل الرومانية ،

(٢) فوكاس (٥٨٣ ـ ٦١٠) كان ظلوماً جباناً ، فاستنجد أهل القسطنطينة بحاكم إفريقية ضده فأرسل لهم أسطولا تحت قيادة ابنه هرقل فتمكن من خلع فوكاس و قتله ، (دائرة المعارف القرن العشرين ج ٤ ص ٤٦٣ ، الطبعة الثالثة ١٩٧١ دار المعرفة بيروت)

و استطاع هرقل — دون مقاومة تذكر — أن يستولى على الامبراطورية و قتل « فوكاس » الخائن .

بيد أن هرقل لم يتمكن - برغم استيلائه على الامبراطورية و قتله فوكاس - من إيقاف طوفان الفرس ، فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد فى شرقى العاصمة وجنوبها ، لم يعد العلم الصليبى يرفرف على العراق و الشام وفلسطين ومصر و آسيا الصغرى ، بل علتها راية الفرس « درفش كاويانى »

و تقلصت الامبراطورية الرومانية فى عاصمتها (١) و سدت جميع الطرق فى حصار اقتصادى قاس ، و عم القحط ، و فشت الأمراض الوبائية ، و لم يبق من الامبراطورية غير جذور شجرها العملاق ، و كان الشعب فى العاصمة خائفاً يترقب ضرب الفرس للعاصمة ودخولهم بها ، وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق ، و كسدت التجارة ، و تحولت معاهد العلم و الثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة .

و بدأ عباد النار يستبدون برعايا الروم للقضاء على المسيحية ، فبدأوا علانية يسخرون من الشعائر الدينية المقدسة ، ودمروا الكنائس ، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠٠,٠٠ من المسيحيين المسالمين ، و أقاموا بيوت عبادة النار فى كل مكان ، و أرغموا الناس على عبادة الشمس و النار و اغتصبوا الصليب المقدس و أرسلوه إلى « المدائن » .

« يتبع »

★★★★

(١) يقول البطرس البستانى فى دائرته : « أما حفيده كسرى برويز أو كسرى الثانى فملك من سنة ٥٩٠ إلى ٦٢٨ ، و اشتهر أيضاً بفتوحاته ، لأنه دوخ سورية و فلسطين و مصر و وصلت عساكره إلى طرابلس الغرب و قرطاجنة ، و استمرت عساكره المنتصرة مدة ١٢ سنة معسكرة قرب القسطنطينية » (دائرة المعارف ج ٤ ص ٧٣٥ مطبعة المعارف بيروت ١٨٨٠م) .

تقدم على آبار الماء ، و آبار البترول ،

واضح رشيد الندوى

فى الحياة المعاصرة ، ما يبعث على البكاء ، و ما يبعث على الضحك ، فقد جمعت الحضارة اليوم بين الجد و الهزل ، و وصلت إلى القمة فى كلا المجالين ، كما جمعت بين المتعة والمعاناة والهدم والبناء، فى وقت واحد، يتخصص فيها شخص واحد و اخترعت أشياء تضر و تنفع فى آن واحد .

و قد يبدو ذلك تناقضا لكنه من الظواهر العامة للحياة المعاصرة التى تحرر فيها الانسان عن الحدود التقليدية بحكم التطور و النمو ، و خرق سائر المقاييس القديمة و طغى عليها فى سيره الحثيث إلى التقدم و بذلك يتميز عن إنسان العصر الغابر الذى كان محدود الصلاحيات و الكفاءات ، و كان محصوراً فى تشخصات ، و مقومات خلقية وتصورات وعقائد تعين ما هو صالح له وما هو غير صالح .

يصادف الانسان اليوم فى حياته أضداداً وتناقضات كثيرة تبعث على الضحك أحياناً ، للاستهانة بالانسان و قيم حياته ، و صيانته ، و لو بحثنا عن أمثلة هذه التناقضات لصادفتنا ظواهر كثيرة بدون إمعان النظر ، فى الاعلانات التجارية ، وفى وسائل الاعلام ، وفى التربية ، والتغذية ، والتنمية ، والدفاع ، السلوك والمعاملات و فى جميع مرافق الحياة .

ومن أمثلة المضحكات نقدم مثالا من الاعلانات التجارية، إعلانات السجائر ، التى تجمع بين النقيضين ، وقد ثبتت طبياً أن السجائر تضر بصحة الانسان وأنها مصدر آلام كثيرة للانسان ، وثبتت مساوىء التدخين فى الطب الحديث الذى لايستطيع أحد

أن ينكره ، و أجمع على هذه الجوانب السلبية للتدخين أطباء عالميون ، و اضطروا إلى إعلان تحفظهم ، ولكن هذا الاعلان كان يتنافى مع المصلحة المادية لصناعة السجائر وسداً لمصدر كبير للكسب فجمعوا بين المصلحتين ، مصلحة التحقيق الطبى ومصلحة الكسب المادى ، بجمع التعريف والتنويه بخصائص ومميزات السيجارة ، فى الاعلانات و على علب السجائر ، و التنبيه بأن التدخين مضر لصحة الانسان ، فيقول مثلا إعلان بارز فى الشوارع العامة أو فى الصحف والمجلات « توج متعتك بنكهة ...» بحروف جلية ثم فى آخر الاعلان يأتى تصريح « التدخين يضر بصحتك » .

لقد منحوا المدخن الخيار ، يؤثر اللذة و متعة التدخين ، و ما يحدث به من الانتعاش ، أو يؤثر صحته ، و سلامته ، لأن وضع قيد على الانسان فى هذه الحضارة يشكل نوعاً من الرجعيـــة و التخلف ، فليكن الانسان حراً ، وليواجـــه عواقب حريته ، و ممارسته .

و مثل هذا التناقض ماتناقلته الأخبار الأخيرة من إنذار خطير وجهه فريق من رواد صناعة الأسلحة الذرية إلى الدول المتقدمة .

جاء فى تقرير من واشنطن أن أكبر منظمة لعلماء الطبيعـــة ، فى الولايات المتحـــدة حذرت زعماء العالم بأن الحرب النووية ، إذا نشبت ، ستدمر الحضارة الانسانية و أن قنبلة واحدة ستبيد آثار الحياة فى منطقـــة شاسعة تشتمل على عدة مدن كبيرة كلياً .

و قد وجهت هيئة علماء الطبيعة التى تبلغ عضويتها ٣٣٬٠٠٠ عالم ، رسالة إلى زعماء الولايات المتحدة و الاتحاد السوفيتى ، و الصين ، و فرنسا ، وبريطانية الكبرى (سابقاً) وكل عضو من أعضاء الكونجرس الأمريكى .

و أعلنت الهيئة أنها ترفع هذا الانذار مرتفعة عن المصالح السياسية لخدمة

المصلحة الانسانية ، و تثق أن هذا الانذار سيساعد على التوصل إلى نزع السلاح ، أو تجنب استخدامها .

وجاء هذا الانذار وسط حوار حاد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، على تنصيب القذائف ذات الأبعاد الطويلة والتحركات العسكرية التى ثارت أخيراً ، و تحالف اليابان مع الولايات المتحدة و الذى أثار حفيظة الزعماء السوفيت و أفقد أعصابهم إلى درجة أنهم فضحوا أنفسهم ، ونواياهم العدوانية ، و ما يدخرون من الأسلحة المبيدة للانسان و استهانتهم بقيمة الانسان ، فهدد الزعيم السوفيتى الجديد بأن الاتحاد السوفيتى سيستخدم سلاحاً فاكا ضد اليابان تتضاءل أمام فظائعه ، فظائع القنبلة الذرية التى استخدمتها أمريكا فى عام ١٩٤٥ على هيروشيما و ناجاساكى .

يأتى هذا التهديد من « رائد السلام العالمى ، ورعاية حقوق الانسان ، وإعادة الحريات الأساسية الانسان » و تستمر استعدادت عشوائية لجعل الانسان وقوداً للاسلحة الفتاكة .

و يصادف الانذار الذى وجهته هيئة علماء الطبيعـــة ، و هم الذين يقومون بتطوير تكنولوجيا الذرة ، تقرير آخر ورد من العاصمة الأمريكية أن الجيش الأمريكى أجرى تجربة لسلاح جديد مضاد للقذائف المتفجرة لصد الهجوم السوفيتى النووى خارج الفضاء ، و أحيطت نتائج هذه التجربة بسرية تامة لأن التجربة تحمل آثاراً عميقة فى عالم الدفاع الذرى و لأن له حساسية كبيرة .

وفى خضم هذه الاستعدادات الحربية ، و انغماس العلماء فى اختراع وسائل التدمير وردت تقارير مفزعة من نفس الأوساط العلمية الغربية ، تفيد بأن العالم يتجه إلى مستقبل مظلم لأن ينابيع الماء تجف فى كثير من أماكن العالم و فيها دول متقدمة كالولايات المتحدة و كندا و دول نامية لم تذق حلاوة التقدم الحضارى

كالهند و باكستان و الصين و غرب آسيا .

ويفيد هذا التقرير أن ثلث الأراضى الزراعية فى العالم سيفقد صلاحية الانبات خلال خمسة عوام قادمة إذا لم تتخذ تدابير لمكافحة انتشار الجفاف تحت الأرض ، وسيكون ذلك صدمة للدول التى لاتزال قيد التطور والتى كانت تنتظر نتائج استخدام الآلات الحديثة للزراعة و تجرى فيها مشاريع الانماء و الاخصاب الزراعى .

كان الجفاف فوق الأرض مشكلة لم يتغلب عليها العلماء كلياً ، و كلفت تجارب استصلاح الأراضى ، وتحويل المناطق الصحراوية إلى مناطق صالحة للزراعة نفقات باهظة لا تتحملها ميزانيات الدول الكبرى ولا يجاد توازن بين الانتاج و الاستهلاك كانت الدول الأوربية ترشد الدول النامية إلى تحديد النسل ، فذهب ضحية هذه المطامع آلاف من الناس ، لأن الدول الغربية كانت قدوة لها فى سائر مناهج الحياة .

و يقول التقرير الذى أعدته منظمة دولية لتطوير الأرض تابعة للامم المتحدة أن مائتى ألف مربع كيلومتر وهو أكبر مساحة من ألمانيا الغربية أو بريطانيا ، يفقد صلاحية الزراعة كل عام نتيجة لهبوط معدل المياه تحت الأرض . وهو خطر عظيم تنعكس به الموازين ، لتضاؤل إنتاجية الأراضى الزراعية .

و يعنى ذلك أن الانسان إذا أمكنه أن يتجنب خسائر الحروب الدامية و الأسلحة الفتاكة يواجه مشكلة أخرى و هى مشكلة النقص الغذائى ، ولا يتوقف على توفر الماء المحصول الزراعى فحسب بل تتوقف عليه حياة الانسان كذلك لأنه أساس الحياة ، و إذا كان الماء آخذاً فى الجفاف فمن يضمن البترول الذى تتحرك به الحياة المعاصرة وتتبرج به الحضارة ؟ فانها قائمة بالماء والبترول اللذين ينبعان من الأرض بقدرة الله و بقدر معلوم مهما صعر الانسان خده ، و تعالى على خالقه ، و صدق الله العظيم « قل أرأيتم إن اصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » .

ندوة علمية و احتفال دينى فى بنغله ديش

فى الأسبوع الأخير من شهر جمادى الأولى لعام ١٤٠٣هـ المصادف الأسبوع الأول من شهر مارس ١٩٨٣م تزمع الجامعة الاسلامية فى مدينة فتية بشيتا غانج (بنغله ديش) عقد احتفال دينى كبير وندوة علمية برئاسة سماحة العلامة مولانا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى رئيس ندوة العلماء فى الهند ، و قد أجاب سماحته دعوة الحضور فى الاحتفال على رأس وفد يمثل ندوة العلماء فيه .

و ستكون هذه هى المناسبة الأولى التى سيزور فيها سماحة الشيخ الندوى هذه البلاد لأول مرة ، و قد تلقى فى المناسبة دعوات كثيرة من مختلف مراكز التعليم والتربية والجامعات الاسلامية فى بنغله ديش ومن بينها دعوة المدرسة العالية الشهيرة فى « دكا » التى وجهها إلى سماحته رئيسها فضيلة الشيخ عبيد الحق وقد قبلها سماحته .

ومن المعلوم أن الجامعة الاسلامية فى شيتاغانج من أشهر الجامعات والمدارس الاسلامية وأنشطها فى هذه البلاد ، وفيها كليات عديدة على غرار الجامعات الكبرى و فيها كلية اللغة العربية وآدابها يرأسها فضيلة الشيخ محمد سلطان ذوق رئيس تحرير مجلة « الصبح الجديد » التى تصدر من الكلية نفسها و تعرف فى الأوساط الأدبية و الدينية و العلمية .

و يرجى أن يحضر سماحة الشيخ الندوى فى مناسبات دينية متعددة تقام فى خلال هذه الفترة فى المدن و المراكز الاسلامية الكبيرة فى بنغله ديش ، ذلك كمدينة « خلنا » « ميمن سنغ » و « جيسور » و « بريسال » و يزور المؤسسات و المدارس الاسلامية ، و يقابل العلماء و الشخصيات الاسلامية البارزة هناك باذن الله تعالى ، نرجو أن تكون هذه الرحلة ذات فوائد علمية و دينية واسعة إن شاء الله تعالى .

سعادة الأستاذ عبدالله العقيل فى منصبه الجديد

علمنا أخيراً من مصادر موثوق بها أن سعادة الأخ الجليل فضيلة الأستاذ عبد الله العقيل مدير الشئون الاسلامية لوزارة الأوقاف و الشئون الاسلامية فى دولة الكويت سابقاً ترقى إلى منصب المستشار لوزير الأوقاف و الشئون الاسلامية معالى الشيخ أحمد سعد الجاسر.

ونحن إذ نهنئ سعادة أخينا الجليل الأستاذ عبد الله العقيل على تسلمه مهام هذا المنصب الجليل بوزارة الأوقاف نرجو أن يوفق فى القيام بمسئوليته خير قيام ، وأن تنتفع به الوزارة فى جوانب عديدة مهمة بتجاربه و بصيرته فى الشئون الاسلامية .

و من المعلوم أن سعادة الأستاذ العقيل له صلة عميقة بندوة العلماء فى الهند ، و بسماحة ولانا الشيخ أبى الحسن الندوى أمين ندوة العلماء العام ، وقد زار منذ فترة من الوقت ندوة العلماء و اطلع على نشاطها برفقة معالى الأستاذ فضيلة الشيخ جاسم يوسف الحجى ، وزير الأوقاف سابقاً فى دولة الكويت .

البعث الاسلامى شهرية ، إسلامية ، جامعة

رئاسة التحرير : سعيد الأعظمى الندوى - واضح رشيد الندوى

الاشتراكات السنوية

فى الهند : ٣٥ روبية - ثمن النسخة ثلاث روبيات ونصف .

فى العالم العربى : ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

فى أوربا وأفريقيا وأمريكا : ٩ دولارت بالبريد السطحى - ٣٠ دولاراً بالبريد الجوى .

فى باكستان بنغلاديش ودول شرق آسيا : ٨ دولارات بالسطحى ، ١٨ دولاراً بالجوى .

★ المراسلات : مكتب رئيس تحرير مجلة البعث الاسلامى

ندوة العلماء ص. ب ٩٣ لكناؤ (الهند)